الكلام على قوله تعالى:

إنما يخشى الله من عباده العلماء

للحافظ
ابن رجب الحنبلي

تحقيق ودراسة
قسم التحقيق بالدار

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر. والتحقيق. والتوزيع
شارع المديرية. ت: ٣٣١٥٨٧ - ص. ب: ٤٧٧

كتاب قد حوى ذررًا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهًا
حقوق الطبع محفوظة

لدار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر - والتحقيق - والتوزيع

المراسلات:
طنطا ش المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب: ٤٧٧

الطبعة الثانية
١٤١٢هـ-١٩٩١م

تقديـــــم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إلة إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(١) .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾(٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾(٣) .

أما بعد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

وبعـــد ....

فهذه صفحات من تراثنا الخالد أردنا نشرها وتقديمها لك أخى القارئ فى أبهى صورة علَّها تكون لك نبراسًا على درب العلم ، وقد يسر الله لنا إخراجها فالحمد لله أولاً وآخرًا .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٢ .
(٢) سورة النساء الآية : ١ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ - ٧١ .

مقدمـة المحقق :

الحمد لله الذى أسبغ نعمه على عباده ، وميَّز البشرية عن غيرها من المخلوقات بالعقل الذى به يستبصرون طريق الحق ، والحمد لله الذى جعل العلم طريقًا لمعرفته والنجاة من عبودية الدنيا ورقِّها ، والنار وسعيرها ، وجعل العلم طريقًا للفوز بالنعيم الأبدى ..

والحمد لله الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، ورزقه الفؤاد الذى به يغنم ويسلم ، حمدًا يليق بجماله وعظيم سلطانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه ، وصلاة ، وسلامًا عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد ...

فضـــل العلـــم وأهلـــه

« فإن أولى ما يتنافس به المتنافسون ، وأحرى ما يتسابق فى حلبة سباقه المتسابقون ما كان بسعادة العبد فى معاشه ومعاده كفيلاً ، وعلى طريق هذه السعادة دليلاً ، وذلك العلم النافع والعمل الصالح اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببهما ، فمن رزقهما فقد فاز وغنم ، ومن حرمهما فالخير كله حرم ، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم ، ولما كان العلم للعمل قرينًا وشافعًا ، وشرفه لشرف معلومه تابعاً ، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد ، وأنفعها علم أحكام أفعال العبيد ، ولا سبيل إلى اقتباس هذين النورين وتلقى هذين العلمين إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته ،

وصرحت الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته ، وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى »[*] .

من ثم رأيت أن أعرض أولاً للآيات القرآنية التى تحث على طلب العلم وتبين فضله وفضل أهله ثم الأحاديث النبوية الشريفة وآثار بعض السلف الصالح .

* يقول الله عز وجل : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[1] .

فبيّن أن المؤمنين العالمين أفضل من جهلة المؤمنين وفى كلّ خير .

* ولم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه محمدًا - ﷺ - بالاستزادة من شيء إلا من العلم فقال عز وجل : ﴿ **وقل ربِّ زدنى علمًا** ﴾[2] .

* وأخبر سبحانه وتعالى أن استواء أهل العلم الشرعى العاملين بعلمهم بالجهلة والغوغاء أمر مستحيل فقال جل ثناؤه : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[3] .

* وقد قصر الله سبحانه وتعالى خشيته والخوف منه على العلماء فقال : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[4] .

والآيات فى هذا المضمار لا تحصى ، ويضيق بنا المقام عن حصرها واستقصائها وإليك أخي القارىء بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدث فيها الرسول ﷺ عن فضل العلم وأهله .

(*) ابن القيم الجوزية / أعلام الموقعين ١/٣ .

(١) سورة المجادلة : ١١ .

(٢) سورة طـه : ١١٤ .

(٣) سورة الزمر : ٩ .

(٤) سورة فاطر : ٢٨ .

فعن أبى هريرة –رضى الله عنه– قال : قال رسول الله ﷺ :
« ... ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وروى الإمام البخارى – رحمه الله – فى صحيحه قال : حدثنا حميد بن عبدالرحمن سمعت معاوية خطيبًا يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله معطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

وقد جزم الإمام البخارى وطائفة من أهل العلم أن المراد بهذه الأمة القائمة على أمر الله حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى وعد الله : هم أهل العلم بالحديث والآثار وقال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟ وقال القاضى عياض – رحمه الله – أراد أحمد أهل السنة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

وحسبنا فى هذا المقام حديث أبى موسى الأشعرى الذى رواه البخارى ومسلم والنسائى ، ذلك الحديث الذى اجتمع فيه رونق اللفظ وبلاغته ، مع دقة المعانى ، فكان من جملة الأحاديث التى جمعت جوامع الكلم .

يقول النبى ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيْعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فَقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم ، ومثل ما لم يرفع بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلته به » .

مضمون الحديث :

نقل الحافظ فى الفتح عن القرطبى وغيره أن النبى ﷺ ضرب لما جاء من الدين مثلاً بالغيث العام الذى يأتى الناس فى حال حاجتهم إليه وكذا كان حال الناس قبل مبعثه فكما أن الغيث يحيى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيى القلب الميت ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التى ينزل بها الغيث فمنهم العالم المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ، ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به وهو المشار إليه بقوله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فأداها كما سمعها » ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيره .

وإنما جمع فى المثل بين الطائفتين الأولتين المحمودتين لاشتراكهما فى الانتفاع بهما وأفرد الثالثة المذمومة لعدم النفع بها والله أعلم .

قال الحافظ : ثم ظهر لى أن فى كل مثل طائفتين .. فالأول : قد أوضحناه . والثانى : الأولى منه من دخل فى الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه ومثلها من الأرض السباخ وأشير إليها بقوله ﷺ : « من لم يرفع بذلك رأساً » أى أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع ..

والثانية منه من لم يدخل فى الدين أصلاً بل بلغه فكفر به ، ومثالها من الأرض الصماء الملساء المستوية التى يمر عليها الماء فلا ينتفع به وأشار إليها بقوله ﷺ : « ولم يقبل هدى الله الذى جئت به » ا . هـ

والأحاديث فى باب الحث على طلب العلم وبيان فضله أحاديث جمة ، وليس هدفنا الاستقصاء وإنما جئنا بالأحاديث السالفة على سبيل الاستشهاد لا الحصر .. ومما ورد فى الآثار عن بعض الصحابة والتابعين ما جاء عن الإمام على – كرم الله وجهه – أنه قال : « العلم خير من المال .. المال تحرسه والعلم يحرسك والمال تفنيه النفقة والعلم يزكو مع الإنفاق ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة » ا . هـ

وقال ابن القيم – رحمه الله – فى مدح الفقهاء والعلماء :

« فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام ، وعُنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام فهم فى الأرض بمنزلة النجوم فى السماء بهم يهتدى فى الظلماء ، حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾[٥] . قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فى إحدى الروايتين عنه ، وجابر بن عبد الله ، والحسن البصرى ، وأبو العالية ، وعطاء ، والضحاك ، ومجاهد فى إحدى الروايتين عنه : أولوا الأمر : العلماء .

وقال أبو هريرة – رضى الله عنه – : هم الأمراء . وهى الرواية الأخرى عن ابن عباس والتحقيق : أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمّروا بمقتضى العلم فطاعتهم تبع لطاعة العلماء »[٦] .

---

(٥) سورة النساء : ٥٩ .

(٦) ابن القيم / أعلام الموقعين (١/٧) .

وعن فضل العلم أنشد عبد الملك بن إدريس الوزير :

واعلم بأن العلم أرفع رتبة ... وأجل مكتسب وأسنى مَفْخَرِ
فاسلك سبيل المقتنين له تسد ... إن السيادة تقتنى بالدَّفْترِ
والعالم المدعو حبراً إنما ... سماه باسم الحبر حمل المِحْبَرِ
وبضمر الأقلام يبلغ أهلها ... ما ليس يبلغ بالجياد الضُمَّرِ

والعالم الذى يحمل العلم ولا يعمل به فذلك مثل الشمعة التى تحترق وتضىء للآخرين ، بل مثله ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفارا** ﴾ لا يعى ما عليه ولا ينتفع بما يحمله . فالعلم يجب أن يقود المرء للعمل به فالعلم والعمل مقترنان ..

وفى ذلك يقول بعضهم :

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ... عليك ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علما فإنما ... يصدق قول المرء ما هو فاعله

وقال آخر :

والعلم ليس بنافع أربابه ... ما لم يفد عملاً وحسن تبصر
سيان عندى علم من لم يستفد ... عملاً به وصلاة من لم يطهر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ... لا ترض بالتضييع وزن المخسر

* **طلب العلم :**

لاشك أن طلب العلم الضرورى واجب ، وقد يصل إلى درجة فرض العين إذ أن ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ..

والعلم علمان : علم شرعى . وعلم دنيوى .

العلم الشرعى : هو كل علم يتعلق بأحكام الشريعة الغراء كالتوحيد ، والفقه وتعلم القرآن ، وعلوم الحديث ، وغير ذلك .

والعلم الدنيوى : ما يستخدمه الإنسان فى حياته الدنيوية كالطب والهندسة والكيمياء والأحياء ، وغير ذلك .

والعلم الواجب على المرء تعلمه هو ما يحتاجه المسلم من العلوم الشرعية وما يتعلق بها من معرفة اللغة العربية التى تعينه على فهم نصوص القرآن ومعانى الحديث والآثار .

والعلوم الشرعية تنقسم بدورها إلى قسمين :

(أ) علم الأصول . (ب) علم الفروع .

(أ) **علم الأصول** : وهو علم العقيدة والتوحيد الذى يشمل معرفة الله عز وجل وتوحيده فى ربوبيته وألوهيته وفى أسمائه وصفاته ، ومعرفة ما أوجبه الله تعالى على خلقه من عبادة ، ومعرفة الرسول والإيمان به وتصديقه والإذعان لما جاء به وهذا العلم يجب على كل مكلف معرفته وعلمه ولا يجوز جهله أو التقليد فيه حيث أن الدلائل واضحة جلية .

(ب) **علم الفروع** : وهو علم الفقه ومعرفة أحكام الدين العامة والخاصة وهذا العلم يختلف حكم طلبه ومعرفته ، فمنه ما هو فرض عين ، ومنه ما هو واجب ، ومنه ما هو فرض كفاية ، ومنه ما هو مستحب .

وفرض العين مثل معرفة تلك التكاليف التى تختص بالعبادات كالطهارة والصلاة وأحكام الصيام وأحكام الزكاة لمن يملك نصابها وأحكام الحج لمن وجب عليه الحج .

والواجب مثل تمييز الحلال من الحرام ، والواجب من المكروه ، والبدعة من السنة ، وفرض الكفاية : مثل تخصص بعض المسلمين لدراسة اللغة العربية وتدريسها والعلوم الشرعية .

والمستحب كحفظ القرآن أو بعضه وحفظ شيء من الحديث وأن يلم بالأحكام الفقهية وأن يدرس سيرة الرسول ﷺ وسيرة الصحابة والتابعين فعلى المسلم أن يبدأ فى طلب العلم الأهم ثم المهم وأن لا يتخاذل فى طلبه ولا يقصر فيه وأن لا ينشغل بما هو من باب فروض الكفايات عما هو من باب فرض العين أو الواجبات .

ومن ثم فإن العلوم التى ينبغى لطالب العلم أن يتعلمها هى مبادئ اللغة العربية وتثقيف اللسان إذ أن دراسة اللغة العربية تثقف للسان اعوجاجه وتقيم له منآده ، ودراسة العلوم الشرعية لا تنفك عن دراسة اللغة العربية ، ولهذا كان عبد الله بن عباس فى مناظرته مع الخوارج يستدل كثيراً بالشعر العربى لبيان مقصوده وإثبات حجته .

ولاشك أن الاستعمار الأوربى – وإن شئت قلت الاستخراب الأوربى – قد تنبه إلى عظم وأهمية دراسة اللغة العربية ودورها الخطير فى فهم النصوص القرآنية والعلوم الشرعية ، لذا فقد أدخل على البلاد الإسلامية الراضخة تحت وطأته تلك اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية ليصدهم بها عن دراسة لغتهم العربية ، ولم يقف عند هذا فحسب بل قصر المناصب والمراتب العالية الرفيعة على أولئك البارعين والمتفوقين فى هذه اللغات الأجنبية .

وعلى طالب العلم أيضا أن يجتهد فى تعلم قراءة القرآن ودراسة علومه ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، وتعلم الحديث وعلومه ليميز بين صحيحه وسقيمه وأن يتعلم الفقه ، وقواعد العقيدة ، وأن يتجنب علوم الكلام والخوض فيها والفلسفة التى ضررها أكبر من نفعها .

وطلب العلم يبدأ فى البيت الإسلامى منذ الصغر فالوالدان مسئولان مسئولية تامة عن تعليم النشء وتربيته تربية سليمة ، فالتعليم فى الصغر يثبت فى الذهن ويرسخ ولا يزول بسهولة على العكس من التعليم فى الكبر .

يقول الشاعر :

أرانى أنسى ما تعلمت فى الكبر ولست بناس ما تعلمت فى الصغر
وما العلم إلا بالتعلم فى الصبا وما الحلم إلا بالتحلّم فى الكبر

* **آداب العالم والمتعلم :**

للعلم آداب يجب على طالب العلم الالتزام بها ، وقد جمع الشيخ الأمين الحاج محمد أحمد فى كتابه «العلم» آداب العالم والمتعلم كل على حدة ثم ذكر الآداب المشتركة بينهما ، ولنكتف بذكر بعض تلك الآداب .

فمن أدب العالم :

- أن يخاطب الناس على قدر عقولهم .
- عليه أن يتفاعل مع علمه .
- إذا سئل عن شىء لا يعلمه أن يقول لا أدرى .
- أن يستخدم أسلوبى الترغيب والترهيب .
- ألا يزجر السائل مهما كان السؤال وأن يصبر على سوء أدبه .

ومن أدب المتعلم :

ألا يسأل العالم وهو مشغول بغيره أو بأمر هام .
- أن يجلس حيث ينتهى به المجلس .
- ألا يتشاغل أثناء الدرس وأن ينصت .

ومن الآداب المشتركة بين العالم والمتعلم :

- صدق النية والإخلاص .
- التواضع ، والخشية والخوف من الله .
- الصمت وقلة الكلام .
- تجنب المراء والجدل والحسد والتباغض .
- الزهد والتقلل من الدنيا .

هذه بعض الآداب التى يجب على طلاب العلم التحلى بها فى كل زمان ومكان على وجه البسيطة ..

ولقد ذكرنا سالفاً فضائل العلم وفضائل أهله من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والآثار الواردة عن بعض الصحابة والتابعين ، ثم تكلمنا عن طلب العلم وشروطه وأقسامه ، وختمت الحديث عن العلم بآداب العالم والمتعلم ليكون نبراساً ليضيء الطريق إلى القارىء ليواصل دربه حتى يصل إلى هذا الكتاب القيم لابن رجب الحنبلى وهو « الكلام على قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ فالله من وراء القصد ، وهو ولينا فى الدنيا والآخرة

والحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات

منهج المؤلف فى الكتاب :

بدأ المصنف – رحمه الله – حديثه عن دلالة (إنما) عند النحاة وغيرهم وتناول تلك الاختلافات المتباينة فى دلالتها ، وذكر أن بعضهم زعم أنها لا تجىء إلا للحصر .

ويرد عليهم مبينا أن ورودها لغير الحصر كثير جداً كقوله تعالى : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾** .

وقوله ﷺ : « إنما الربا فى النسيئة » وغير ذلك من النصوص وكذلك قولهم : (إنما العالم زيد) إلى غير ذلك من النصوص التى لا تدل (إنما) فيها على الحصر ، ثم انتهى المصنف إلى فائدة مضمونها أن (إنما) تدل على الحصر ودلالتها عليه معلوم بالاضطرار من لغة العرب كما يعلم من لغتهم بالاضطرار معانى حروف الشرط والاستفهام والنفى والنهى ، وقد تكلم أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه المسألة فذكر أن دلالة (إنما) على الحصر إنما هو بطريق العرف ، والاستعمال لا بأصل وضع اللغة ؛ ومن تلك الاختلافات يستخلص المصنف أن من خشى الله وأطاعه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو عالم لأنه لا يخشاه إلا عالم ، وعلى نفى الخشية عن غير العلماء ونفى العلم عن غير أولى الخشية أيضا ، وأن من لم يخش الله فليس بعالم وبذلك فسرها السلف .

ثم تحدث المصنف – رحمه الله – فى فصل عن كيف تكون الخشية ؟ وبيان أن العلم يوجب الخشية وأن فقده يستلزم فقد الخشية وبين ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أن العلم بالله تعالى وماله من الأسماء والصفات كالكبرياء والعظمة والجبروت والعزة وغير ذلك يوجب خشيته وعدم ذلك يستلزم فقد هذه الخشية .

الوجه الثانى : أن العلم بتفاصيل أمر الله ونهيه والتصديق الجازم بذلك وما يترتب عليه من الوعد والوعيد والثواب والعقاب مع تيقن مراقبة الله واطلاعه ومشاهدته ومقته لعاصيه كل ذلك يوجب الخشية .

الوجه الثالث : أن تصور حقيقة المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور حقيقة المحبوب توجب طلبه فإذا لم يهرب من هذا ويطلب هذا دل على أن تصوره لذلك ليس تامًّا .

الوجه الرابع : أن كثيراً من الذنوب يكون سبب الوقوع فيها جهل فاعله بحقيقة قبحه وبغض الله له وتفاصيل الوعيد كلية ، فجهله هو الذى جرّأه عليه ولو كان عالماً بحقيقة قبحه لأوجب ذلك العلم تركه خشية من عقابه .

الوجه الخامس : العاقل لا يقدم على ضرر نفسه .

الوجه السادس : لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام فإن لذاتها سريعة الانقضاء وعقوباتها وآلامها أضعاف ذلك .

الوجه السابع : الجهل أوقعه فى الهموم والغموم وسول له ارتكاب المحظور واستلذاذ الممنوع .

وفى خاتمة الكلام يذكر المصنف خلاصة ما تقدم فيقول :

إذا تبين هذا فقد علم أن العلم مستلزم للخشية من هذه الوجوه كلها لكن على الوجه الأول يستلزم الخشية العلم بالله وجلاله وعظمته

وهو الذى فسر جماعة من السلف به الآية ، وعلى الوجوه الأُخر تكون الخشية ملازمة للعلم بأوامر الله ونواهيه وأحكامه وشرائعه وأسرار دينه وشرعه وخلقه وقدره ، ولا تنافى بين هذا العلم والعلم بالله فإنهما قد يجتمعان وقد ينفرد أحدهما عن الآخر وأكمل الأحوال اجتماعهما جميعاً وهى حالة الأنبياء عليهم السلام وأولوا العلم .

وبعد ذلك راح المصنف – رحمه الله – يذكر جملا من أقوال السلف الصالح فى العلم والخشية ، وحقيقة فهذا الكتاب أو بالأحرى تلك الرسالة قد حوت دراً عظيمة على صغر حجمها إلا أن قيمتها غالية ثمينة ..

وعلى عادتنا وهى نشر كل ما هو قديم فى ثوب جديد ، رأينا أن هذه الرسالة من الأهمية بمكان بحيث لا يستغنى عنها طالب علم على مر العصور والأزمان ..

ونسأل الله العظيم أن ينفع بهذا العلم وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم فإنه أكرم مسئول ، وأرجى مأمول ..

ونسأله عز وجل أن يجعله من ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه عز وجل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* **ترجمة المصنف**(*)

* **اسمه ونسبه :**

هو الإمام الحجة زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد بن أبى البركات مسعود السلامى البغدادى ثم الدمشقى أبو الفرج الشهير بابن رجب الحنبلى .

لقبه المشهور زين الدين ، ولقّبه الشيخ شمس الدين عبدالقادر النابلسى بالشيخ جمال الدين .

* **مولـــده :**

ولد ابن رجب فى بغداد سنة ٧٣٦ هـ وأجمعت على ذلك مصادر ترجمته باستثناء بعضها كالدرر الكامنة لابن حجر ، وطبقات الحفاظ للسيوطى وذيله على تذكرة الحفاظ حيث ذكر أنه ولد فى سنة ٧٠٦ هـ وهذا إنما هو تاريخ ولادة والده أحمد .

* **نشأته ورحلاته :**

قيَّض الله – تعالى – لابن رجب عوامل كثيرة أسهمت فى تكوين شخصيته العلمية الفذة منها استعداده الفطرى الموهوب ، وأسرته الكريمة التى توارثت العلم كابرًا عن كابر وعصره المزدحم بالثقافة الموسوعية ، والمعرفة المتنوعة ، ونوابع العلماء فى كل مضمار ..

(*) معجم المؤلفين (١١٨/٥) شذرات الذهب (٣٣٩/٦ – ٣٤٠) المنهج الأحمد (٤٧٠ – ٤٧١) البدر الطالع (٣٢٨/١) الأعلام (٢٩٥/٣) الدرر الكامنة (٣٢١/٢ – ٣٢٢) فهرس الفهارس (٦١/٦٠/٢) .

ولقد وجهته هذه العوامل نحو طلب العلم حتى إنه أحضر مجالس العلم والعلماء وهو دون سن التمييز – فى الثالثة من عمره – ومن ثم بدأ ابن رجب فى طلب العلم .

ولم تقف أسرة ابن رجب – بما عرفت من مذاق العلم والرحلة فيه – عند هذا الحد بل حمل والده أبناءه ومنهم صاحبنا وتوجه بهم نحو مجتمع العلم والعلماء فدخل بهم دمشق سنة ٧٤٤ هـ ، وبها سمع الوالد والولد كبار المسندين والمحدثين وفى دمشق سمع ابن رجب محمد بن إسماعيل الخباز (ت ٧٥٦ هـ) ، ومحمد بن إسماعيل الحموى الدمشقى (ت ٧٥٧ هـ) ورحل إلى نابلس ليلتقى بجماعة من أصحاب عبدالحافظ بن بدران ثم إلى القدس فسمع الحافظ أبا سعيد العلائى .

ورجع ابن رجب مع والده إلى بغداد سنة ٧٤٨ هـ ، ومن بغداد يتوجه مع والده إلى الحج ، وبمكة يسمع ثلاثيات البخارى من أبى الشيخ أبى حفص عمر بن على بن الخليل البغدادى (ت ٧٥٩ هـ) ثم عاد بعد ذلك إلى دمشق حيث لزم شيخه ابن قيم الجوزية إلى أن مات شيخه (٧٥١ هـ) .

وأما رحلته إلى مصر فقد كانت قبل سنة ٧٥٤ هـ وهى السنة التى توفى بها شيخه أبو الفتح محمد بن محمد الميدومى ، وقد نص ابن رجب أنه قرأ عليه بمصر .

كما لقى بالقاهرة محمد بن إسماعيل الصوفى المعروف بابن الملوك ، وقد سمع ابن رجب ووالدُه الذى كان يرافقه فى الرحلة أبا الحرم القلانسى (ت ٧٦٥ هـ) .

وفى سنة (٧٦٣ هـ) اتجه إلى الحج وهناك التقى بالمشاهير من العلماء ، وبعد هذه الرحلة الحافلة بالحركة والنشاط استقر ابن رجب بدمشق يدرس بمدارسها ويعقد المواعيد الوعظية ، فدرس بالمدرسة

الحنبلية بعد وفاة ابن التقى (٧٨٨ هـ) وولى حلقة الثلاثاء بعد وفاة ابن قاضى الجبل سنة (٧٧١ هـ) .

وظل ابن رجب يخرج الطلبة النجباء والعلماء الأكفياء ، ويصنف الكتب النافعة ، والرسائل القيمة حتى وافاه الأجل .

وتذكر المصادر أنه كان يسكن فى المدرسة السكرية بالقصاعين منعزلاً عن الناس منصرفاً إلى أموره العلمية ليس له شغل إلا الاشتغال بالعلم وبالجملة لم يخلق بعده مثله .

* **وفاتـــه :**

اتفقت مصادر الترجمة على أن وفاته – رحمه الله – كانت سنة ٧٩٥ هـ وأرّخ الشيخ شمس الدين بن ناصر الدين – رحمه الله – وفاته فى شهر رجب من السنة المذكورة هى سنة ٧٩٥ هـ . وقال ابن ناصر الدين : ولقد حدثنى من حضر لحد ابن رجب أن الشيخ زين الدين بن رجب جاء قبل أن يموت بأيام فقال له : احفر لى ههنا لحدًا ، وأشار إلى البقعة التى دفن فيها ، قال : فحفرت له ، فلما فرغت نزل فى القبر ، واضطجع فيه ، فأعجبه وقال : هذا جيد ثم خرج ، قال : فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أُتى به ميتاً محمولاً على نعشه فوضعته فى ذلك اللحد وواريته فيه – رحمه الله – .

* **شيوخه**(*)

– قاضى القضاة أبو العباس : أحمد بن الحسن بن عبد الله المشهور بابن قاضى الجبل (٦٩٣ – ٧٧١ هـ) سماعاً فى دمشق .

– أبو العباس : أحمد بن سليمان الحنبلى فى بغداد قراءة عليه .

– شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الحريرى المقدسى الصالحى (٦٦٣ – ٧٥٨ هـ) فى دمشق سماعا .

– ابن قدامة المقدسى سمعه فى دمشق .

– جمال الدين أبو سليمان : داود بن إبراهيم العطار (٦٦٥ – ٧٥٢ هـ) سمعه فى دمشق .

– بنت الكمال : زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية (٦٤٦ – ٧٤٠ هـ) إجازة وهو فى بغداد .

– شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعيد ابن جرير الزرعى ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١ هـ) سمعه فى دمشق ولازمه أزيد من سنة .

– أبو المعالى : محمد بن عبد الرزاق الشيبانى فى بغداد قراءة عليه سنة ٧٤٩ هـ .

(*) ذكر الدكتور « همام عبد الرحيم سعيد» ستاً وثلاثين شيخاً اكتفينا بذكر هؤلاء الشيوخ حتى لا يطول المجال ويتجاوز الحد المطلوب . انظر شرح علل الترمذى (١/٢٥٢ – ٢٥٧) .

- صدر الدين أبو الفتح : محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومى (٦٦٤ - ٧٥٤ هـ) سمعه فى مصر .

- ابن الملوك (٦٧٤ - ٧٥٦ هـ) سمعه فى مصر وأخذ عنه كثيراً .

- فتح الدين أبو الحرم : محمد بن محمد بن محمد القلانسى الحنبلى (٦٨٣ هـ - ٧٦٥ هـ) سمعه فى القاهرة .

- ابن النباش : ذكر ابن رجب أنه لازمه حتى الممات ولم يذكر له تاريخ وفاة .

- ابن الخباز محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقى (٦٦٧ هـ - ٧٥٦ هـ) .

* **تلاميـذه**(*) :

- الشهاب أبو العباس : أحمد بن أبى بكر بن سيف الدين الحموى الحنبلى ويعرف بابن الرسام (٧٧٣ - ٨٤٤ هـ) أجازه ابن رجب .

- محب الدين أبو الفضل أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر مفتى الديار المصرية (٧٦٥ - ٨٤٤ هـ) سمع ابن رجب فى دمشق ولازمه .

- على بن محمد بن على بن عباس البعلى ثم الدمشقى الحنبلى المعروف بابن اللحام وهى حرفة أبيه .

(*) ذكر محقق كتاب علل الترمذى . د. همام عبد الرحيم سعيد ، سبعة عشر علماً من تلاميذ ابن رجب اكتفينا منهم بما ذكرنا لضيق المقام . انظر : شرح علل الترمذى (١/٢٦١-٢٦٤) .

- شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد المقدسى الحنبلى قاضى مكه (٧٧١ - ٨٥٥ هـ) سمعه فى دمشق .

ثناء العلماء عليه :

قال ابن العماد : « وكانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة ، وللناس عامة مباركة نافعة ، اجتمعت الفرق عليه ومالت القلوب بالمحبة إليه »[١] .

وقال ابن حجى : « أتقن الفن أى فن الحديث وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق وتخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق »[٢] .

ويقول ابن قاضى شهبة : « كتب وقرأ وأتقن الفن واشتغل فى المذهب حتى أتقنه وأكب على الاشتغال بمعرفة متون الحديث وعلله ومعانيه » .

وقال فيه ابن حجر : « ومهر فى فنون الحديث أسماءً ورجالاً وطرقا واطلاعاً على معانيه » .

وقال صاحب « المنهج الأحمد » : « وكان أحد الأئمة الحفاظ الكبار والعلماء الزهاد الأخيار » .

وقال ابن فهد : « الإمام الحافظ الحجة والفقيه العمدة أحد العلماء الزهاد والأئمة العباد مفيد المحدثين واعظ المسلمين »[٣] .

---

(١)، (٢) شذرات الذهب (٣٣٩/٦) .

(٣) شرح علل الترمذى لابن رجب الحنبلى ت د. همام عبد الرحيم سعيد (٢٤٩/١ - ٢٥٠) .

مصنفاته وآثاره العلمية(*) :

١ – اختيار الأولى فى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (مطبوع) .
٢ – الاستخراج لأحكام الخراج (مطبوع) .
٣ – استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس . (مطبوع) .
٤ – أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور . (مطبوع) .
٥ – الحكم الجديرة بالإذاعة . (مطبوع) .
٦ – بغية الإنسان فى وظائف رمضان . (مطبوع) .
٧ – جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم . (مطبوع) .
٨ – الذيل على طبقات الحنابلة (مطبوع) .
٩ – شرح علل الترمذى (مطبوع) .
١٠ – فضل علم السلف على الخلف . (مطبوع) .
١١ – القواعد فى الفقه الإسلامى . (مطبوع) .
١٢ – لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (مطبوع) .
١٣ – فتح البارى بشرح صحيح البخارى . مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٨٩ حديث تيمور .
١٤ – نزهة الاستماع فى مسألة السماع مخطوط دار الكتب المصريه (١٦١٦٣) وغير ذلك كثير .

(*) المراجع : كشف الظنون ، معجم المؤلفين (١١٨/٥) الدرر الكامنة (٣٢١/٢ ، ٣٢٢) ذخائر التراث العربى الإسلامى (جـ١١٩/٢ ، ١٢٠) شرح علل الترمذى (٢٦٦/١) ، شذرات الذهب (٣٣٩/٦ – ٣٤٠) ، البدر الطالع (٣٢٨/١) – الأعلام (٢٩٥/٣) .

عملى فى الكتاب

أولاً : قمت بقراءة المنسوخة ، مصححاً بعض الكلمات والجمل التى اعتراها التصحيف والتحريف .

ثانيـاً : قمت بعزو الآيات القرآنية الواردة فى الرسالة إلى أماكنها فى المصحف الشريف .

ثالثـاً : قمت بتخريج الأحاديث والآثار وعزوها إلى مصادرها وذكر درجة الحديث إن أمكن ذلك بالرجوع إلى أقوال العلماء فيه .

رابعـاً : قمت بعمل تراجم للشخصيات والأعلام الوارد ذكرهم فى ثنايا الرسالة .

خامساً : وضحت بعض معانى الكلمات المبهمة فى الرسالة وعزوتها إلى أماكنها فى كتب اللغة كلسان العرب لابن منظور ، والمعجم الوسيط وغير ذلك .

سادساً : التعليق على بعض الفرق الوارد ذكرها فى الرسالة وذكر نبذ مختصرة عنها .

سابعاً : قمت بعمل مقدمة للكتاب تشتمل على :

- التعريف بالكتاب .
- التعريف بالمؤلف .
- وصف مخطوطة الكتاب .

وهذا جهد المقل ، فإن كنت قد أصبت فمن الله عز وجل ، وإن كانت الأخرى فمن نفسى ومن الشيطان ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ .

تم التحقيق بالدار

وصـف المخطوطـة

عثرنا على هذه المخطوطة بدار الكتب المصرية العامرة بذخائر التراث العربى الإسلامى ، ولكم كانت سعادتنا إذ وجدناها منسوبة لعالم كبير أجمع معاصروه ومن جاء من بعدهم على تقدمه فى كل العلوم الشرعية ألا وهو ابن رجب الحنبلى .

والمخطوطة برقم / ٢٨ مجاميع حليم

وتحتوى مخطوطة الرسالة على ٦٤ صفحة ، فى كل صفحة ١٧ سطراً ، فى كل سطر حوالى ١٠ كلمات تقريباً .

فلزم حتما ان ينفي العلم ويثبت الجهل عند انتفاء قابلة العلم ومقتضاه
وهو اتباعه ومن هذا الباب قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا
وقوله النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان احدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فان
امرؤ شاتمه او قاتله فليقل اني امرؤ صائم وهذا كما يوصف
من لا يسمع بسمعه ويصره وعقله في معرفة الحق والانقياد له بانه
اصم ابكم اعمى قال تعالى صم بكم عمي فهم لا يعقلون ويقال
ايضا انه لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل كما قال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا
من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم
اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون
فسلب العلم والعقل والسمع والبصر واثبات الجهل والبكم والصمم
والعمى ونحو من فقد حقائق هذه الصفات وفوائدها من الخاص والمناقص
او من شرائعهم في بعض ذلك كله من باب واحد وهو سلب اسم الشيء او
مسماه لانتفاء مقصوده وفائدته وان كان موجودا وهو باب واسع
وامثلته كثيرة في الكتاب والسنة ○ انتهى ما ذكره الشيخ نفع الله به
وقوله منه وصح في مدته ○ نقلت من نسخة مكتوب عليها ما صورته
بلغ مقابلة على اصل وهو سيدي كاتبه وصاحبه العبد الفاضل الاوحد المستعل
المحصل زين الدين ابو الخير محمد بن الشيخ العلامة العارف ابي محمد عبد القادر بن محمد بن علي
ابن الجبار الدين الحسني بعنه الله ونفع به وللمسلمين برحمته حسن وآمين وكتب بيده
نطاهر دمشق المحروسة واحرزها ما نحوذ في وغي رواية شرط ان عبد اللطيف بن احمد بن
الحسني عفا الله عنه ○

الكلام على قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

جمع الشيخ الإمام العالم العلامة

أبى محمد عبد الرحمن بن الشيخ

الإمام العالم شهاب

الدين أحمد بن رجب

الحنبلى

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال شيخنا وسيدنا الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مفتى الأنام وحيد عصره وفريد دهره أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلى نفع الله به .

فصل [دلالة كلمة (إنما) عند النحاة]

فى قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ** ﴾[1] دلت هذه الآية على إثبات الخشية للعلماء بالاتفاق وعلى نفيها عن غيرهم

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٨ .

* يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيرها : « إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر » ا . هـ

* ويقول الطبرى : « إنما يخاف الله فيتقى عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شىء وأنه يفعل ما يريد لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه » ا . هـ .

* ويقول القرطبى : « يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية » ا . هـ

* يقول ابن عباس : « العلماء : الذين علموا أن الله على كل شىء قدير » .

* وقرأها عمر بن عبد العزيز ، وتُحكى عن أبى حنيفة برفع لفظ الجلالة ، ونصب (العلماء) قال الزمخشرى : الخشية فى هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ا . هـ =

على أصح القولين ، وعلى نفى العلم عن غير أهل الخشية أيضا

أما الأول : فلا ريب فيه فإن صيغة (إنما) تقتضى تأكد ثبوت المذكور بالاتفاق لأن خصوصية (إنَّ) إفادة التأكيد وأما (ما) فالجمهور على أنها كافة ، ثم قال جمهور النحاة هى الزائدة التى تدخل على إنَّ ، وأنَّ ، وليت ، ولعل ، وكأنَّ ، فتكفها عن العمل لأن الأصل فى الحروف العاملة أن تكون محضة فإذا اختصت بالاسم أو الفعل ولم يكن كالجزء منه عملت فيه ، وإنَّ وأخواتها مختصة بالاسم فتعمل فيه فإذا دخلت عليها (ما) زالت اختصاصها فصارت تدخل على الجملة الإسمية والفعلية فبطل عملها وإنما عملت (ما) النافية على اللغة التى نزل بها القرآن وهى لغة أهل الحجاز استحسانًا لمشابهتها (لليس) وذهب بعض الكوفيين ، وابن درستويه إلى أن (ما) مع هذه الحروف اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن فى التفخيم والإبهام وفى أن الجملة بعده مفسرة له ومخبر بها عنه ، وذهبت طائفة من الأصوليين وأهل البيان إلى أن (ما) هذه نافية واستدلوا بذلك على إفادتها الحصر .

وأن (إنَّ) أفادت الإثبات فى المذكور و (ما) النفى فيما عداه وهذا باطل باتفاق أهل المعرفة باللسان فإن (إنَّ) إنما تفيد توكيد الكلام إثباتاً كان أو نفيا لا يفيد الإثبات .

و (ما) زائدة كافة لا نافية وهى الداخلة على سائر أخوات إنَّ لكنَّ وكأن وليت ولعل ، وليست فى دخولها على هذه الحروف نافية بالاتفاق فلذلك الداخلة على إنَّ وأنَّ وقد نسب القول بأنها نافية إلى أبى

= انظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٦٣٠/٦ / دار الشعب) .

– « جامع البيان » للطبرى (١٣٢/٢٢) مصطفى البابى الحلبى .

– القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » (٣٤٣/١٤) مكتبة الرياض الحديثة .

على الفارسى[٢] لقوله فى كتاب الشيرازيات أن العرب عاملوا (إنما) معاملة النفى و (إلا) فى فصل الضمير لقوله .

« وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى » .

وهذا لا يدل على أن ما نافية على ما لا كفى وإنما مراده أنهم أجروا (إنما) مجرى النفى و (إلا) فى هذا الحكم لما فيها معنى النفى ولم يصرح بأن النفى مستفاد من (ما) وحدها وقيل إنه لا يمتنع أن يكون (ما) فى هذه الآية بمعنى الذى والعلماء خبر والعائد مستتر فى يخشى .

وأطلقت (ما) على جماعة العقلاء كما فى قوله تعالى : **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** ، و **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾**[٣] .

وأما دلالة إلا عن التأكيد وهو نفى الخشية عن غير العلماء فمن صيغة (إنما) أما على قول الجمهور وأن (ما) هى الكافة فيقول إذا دخلت (ما) الكافة على (إن) أفادت الحصر هذا هو الصحيح ، وقد حكاه بعض العلماء عن جمهور الناس وهو قول أصحابنا كالقاضى[٤] ،

---

(٢) **أبو على الفارسى** : (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ = ٩٠٠ - ٩٨٧ م) .

هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى الأصل ، أبو على : أحد الأئمة فى علم العربية ، ولد فى فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد سنة ٣٠٧ هـ وتجول فى كثير من البلدان ، كان متهما بالاعتزال وله شعر قليل . من كتبه « التذكرة » فى علوم العربية ، عشرون مجلدا ، و « جواهر النحو » و « العوامل » فى النحو ، و « المسائل الشيرازية » و « المسائل العسكريات » و « الحلبيات » و « البصريات » [الأعلام ١٨٠/٢] .

(٣) سورة النساء الآية : ٣ .

(٤) يقصد القاضى أبا الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى محمد بن الحسين بن الفراء المتوفى ٥٢٧ هـ صاحب كتاب « طبقات الحنابلة » والذى ذيل له ابن رجب مصنف هذا الكتاب وسماه « الذيل على طبقات الحنابلة » .

وابن عقيل[٥] ، والحلوانى[٦] ، والشيخ موفق الدين[٧] ، وفخر الدين[٨] إسماعيل بن على صاحب ابن المِنّى ، وهو قول أكثر الشافعية كأبى

---

(٥) **ابن عقيل** : هو على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادى الظفرى ، أبو الوفاء ، ويعرف بابن عقيل : عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد فى وقته . كان قوى الحجة ، اشتغل بمذهب المعتزلة فى حداثته ، فأراد الحنابلة قتله ، فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة له تصانيف أعظمها « كتاب الفنون » وهو فى أربعمائة جزء ، وله « الواضح فى الأصول » و « الفصول » فى فقه الحنابلة . توفى (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) . الأعلام للزركلى (٣١٣/٤) .

(٦) **الحلوانى** : (٤٩٠ هـ - ٥٤٦ هـ) .

هو عبد الرحمن بن محمد بن على بن محمد الحلوانى ، أبو محمد بن أبى الفتح : مفسر ، فقيه حنبلى ، عارف بالأدب ، من أهل بغداد ، من كتبه « التبصرة » فقه ، و « الهداية » فى أصول الفقه ، و « تفسير القرآن » فى ٤١ جزءاً . انظر الأعلام (٣٢٧/٣) .

(٧) **موفق الدين** : هو عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعيلى المقدسى ثم الدمشقى الحنبلى أبو محمد ، موفق الدين : فقيه ، من أكابر الحنابلة ، له تصانيف منها « المغنى » شرح به مختصر الخرقى فى الفقه ، و « روضة الناظر » فى أصول الفقه ، و « المقنع » و « ذم ما عليه مدّعو التصوف » رسالة وغير ذلك . ولد فى جماعيل (من قرى نابلس بفلسطين) ٥٤١ هـ وتعلم فى دمشق ورحل إلى بغداد سنة ٥٦١ هـ فأقام نحو أربع سنين ، وعاد إلى دمشق وفيها وفاته (٦٢٠ هـ) انظر : البداية والنهاية ٩٩/١٣ ، شذرات الذهب ٨٨/٥ ، ذيل طبقات الحنابلة ١٣٣/٢ - ١٤٩ .

(٨) هو إسماعيل بن على بن الحسين البغدادى ، الأزجى ، المأمونى ، الحنبلى ، ويعرف بابن الرفاء وبابن الماشطة ، وبغلام ابن المنّ (فخر الدين ، أبو محمد) فقيه ، أصولى ، حكيم متكلم . توفى (٦١٠ هـ) من تصانيفه : « جنة الناظر وجنة المناظر » و « تعليقه فى الخلاف » و « نواميس الأنبياء » وله شعر . [معجم المؤلفين (٢٨٠/٢)]

حامد[٩] ، وأبى الطيب[١٠] ، والغزالى[١١] ، والهرَّاسى[١٢] ، وقول طائفة من الحنفية كالجرجانى[١٣] ، وكثير من المتكلمين كالقاضى أبى بكر[١٤]

---

(٩) **أبو حامد** : هو أبو حامد محمد بن عبد الملك بن محمد الإسفراينى ثم الجوسقانى ، قال ابن السمعانى : كان إماما فاضلا متدينا حسن السيرة قليل الاختلاط بالناس تفقه ببغداد على الغزالى ، وسمع الحديث من أبى عبد الله الحميدى وغيره ، وذكر أبو سعد أنه مات بعد سنة ٥٤٠ هـ .

انظر ترجمته فى « طبقات الشافعية » للإسنوى (٣٦٤/١) ، ومعجم البلدان (١٨٤/٢) .

(١٠) **أبو الطيب** : هو طاهر بن ثابت ابن أبى المعالم ابن ثابت القاضى ، ولد بالبوازيج ونشأ بها ، قدم الموصل ، وتفقه بها على ابن العماد بن يونس ، وتولى نيابة القضاء بها ، واستمرت أحواله على الانتظام إلى أن مات بها فى صفر سنة ٦٢٢ هـ .
طبقات الشافعية للإسنوى (٢٧٢/١) .

(١١) **الغزالى** : (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، أبو حامد ، حجة الإسلام ، فيلسوف ، متصوف ، مولده ووفاته فى الطابران (بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر ، وعاد إلى بلدته ، له نحو مئتى مصنف منها « إحياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » و « الاقتصاد فى الاعتقاد » و « الوجيز » فى فروع الشافعية .
الأعلام (٢٢/٧)

(١٢) **الهراسىّ** : هو على بن محمد الطبرى ، المعروف بالكيا الهرَّاسى ، تفقه ببلده ثم رحل إلى نيسابور ، قاصداً إمام الحرمين ، وعمره ثمانى عشرة سنة ، ولازمه حتى برع فى الفقه ، والأصول ، والخلاف ، وطار اسمه فى الآفاق ، وكان هو والغزالى ، والخوافى أكبر تلامذته ومعيدى درسه ، وكان إماماً نظّاراً ، قوىّ البحث ، دقيق الفكر ، توفى سنة ٥٠٤ هـ (طبقات الشافعية للإسنوى ٥٢٠/٢ - ٥٢١)

(١٣) **الجرجانى** : يوسف بن على بن محمد ، أبو يعقوب الجرجانى ، فقيه حنفى ، من العلماء . صنف « خزانة الأكمل » فى فروع الحنفية ، قال حاجى خليفة : « واتفق بدايته يوم الأضحى سنة ٥٢٢ هـ » انظر كشف الظنون (ص : ٧٠٢) .
والأعلام للزركلى (٢٤٢/٨)

(١٤) **القاضى أبو بكر** : هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر : قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرياسة فى مذهب الأشاعرة ، ولد فى البصرة وسكن بغداد=

وغيره ، وكثير من النحاة ، وغيرهم ، بل قد حكاه أبو على فيما ذكره الرازى عن النحاة جملة ، ولكن اختلفوا فى دلالتها على النفى هل هو بطريق المنطوق ، أو بطريق المفهوم فقال كثير من أصحابنا كالقاضى فى أحد قوليه وصاحب ابن المِنّى والشيخ موفق الدين : أن دلالتها على النفى بالمنطوق كالاستثناء سواء وهو قول أبى حامد ، وأبى الطيب من الشافعية ، والجرجانى من الحنفية ، وذهبت طائفة من أصحابنا كالقاضى فى قوله الآخر وابن عقيل ، والحلوانى ، إلى أن دلالتها على النفى بطريق المفهوم وهو قول كثير من الحنفية ، والمتكلمين ، واختلفوا أيضا هل دلالتها على النفى بطريق النص ، أو الظاهر ، فقالت طائفة إنما تدل على الحصر ظاهراً ، أو يحتمل التأكيد ، وهذا الذى حكاه الآمدى(١٥) عن القاضى أبى بكر ، والغزالى ، والهَرَّاسى ، وغيرهم من الفقهاء وهو يشبه قول من يقول إن دلالتها بطريق المفهوم فإن أكثر دلالات المفهوم بطريق الظاهر لا النص وظاهر كلام كثير من أصحابنا ، وغيرهم أن دلالتها على النفى والإثبات كلاهما بطريق النص لأنهم جعلوا (إنما) كالمستثنى والمستثنى منه سواء وعندهم أن الاستثناء من الإثبات نفى ومن النفى إثبات نصا لا [محلًا] .

= فتوفى فيها سنة ٤٠٣ هـ كان جيد الاستنباط سريع الجواب . من كتبه «إعجاز القرآن» و « الإنصاف » و « مناقب الأئمة » و « الملل والنحل » و « التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة » الأعلام (٦/١٧٦)

(١٥) **الآمدى** : هو على بن محمد بن سالم التغلبى ، أبو الحسن ، سيف الدين الآمدى أصولى باحث . أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها ، وتعلم فى بغداد والشام ، وانتقل إلى القاهرة ، فدرس فيها واشتهر ، وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة فخرج مستخفيا إلى حماة ومنها إلى دمشق فتوفى بها ٦٣١ هـ من تصانيفه « الإحكام فى أصول الأحكام » و « لباب الألباب » و « دقائق للحقائق » انظر الأعلام (٤/٣٢٢)

وأما من قال إن الاستثناء ليس لإثبات النقيض بل لرفع الحكم إما مطلقا أو فى الاستثناء من الإثبات وحده كما يذكر عن الحنفية وجعلوه من باب المفهوم الذى ينفونه ، فهو يقول ذلك فى (إنما) بطريق الأولى فظهر بهذا أن المخالف فى إفادتها الحصر هو من القائلين بأن دلالتها على النفى بالمفهوم وهم قسمان :

أحدهما : من لا يرى كون المفهوم حجة بالكلية كالحنفية ، ومن وافقهم من المتكلمين .

والثانى : من يراه حجة من الجملة ، ولكن بنفيه هاهنا لقيام الدليل عنده على أنه لا مفهوم لها ، واختاره بعض المتأخرين من أصحابنا ، وغيرهم ، وبيان ذلك أن (إنما) مركبة من (إن) المؤكدة و (ما) الزائدة الكافة فيستفاد التوكيد من (إن) والزائد لا معنى له نعم أكثر ما يقال (إن) تفيد تقوية التوكيد كما فى الباء الزائدة ونحوها فأما أن يحدث معنى آخر فلا ، وقد يعدم بيان بطلان قول من ادعى أن (ما) نافية وأن النفى فيما عدا المذكور مستفاد منها .

وأيضاً فورودها لغير الحصر كثير جداً كقوله تعالى : ﴿ **إنَّما المؤمِنُون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً وعلى ربِّهِم يتوكلون** ﴾[16] وقول النبى – ﷺ – : « إنما الربا فى النسيئة »[17] وقوله : « إنما الشهر تسع وعشرون »[18] وغير ذلك من

---

(١٦) سورة الأنفال : الآية ٢

(١٧) **حديث صحيح** : أخرجه مسلم / المساقاة باب ١٨ ح (١٠٢) ، وأحمد (٢٠٠/٥) والنسائى ح (٤٥٨١/أبو غدة) ، وابن ماجه ح (٢٢٥٧) .

(١٨) **حديث صحيح** : أخرجه مسلم (١٠٨٠) ، وأحمد (٣٤١/١) ، وعبد الرزاق (١٩٤٩٨) فى مصنفه ، والدارمى (٤/٢) ، وابن حبان (٢٤٢/٥) ، والدارقطنى (١٦٣/٢) فى سننه .

النصوص ويقال : « إنما العالم زيد » ومثل هذا لو أريد به الحصر لكان هذا وقد يقال إن أغلب مواردها لا تكون فيها للحصر فإن قوله تعالى : ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾[١٩] لا تفيد الحصر مطلقا فإنه سبحانه وتعالى له أسماء وصفات كثيرة غير توحده بالإلهية وكذلك قوله : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ** ﴾[٢٠] فإنه لم ينحصر الوحى إليه فى هذا وحده وكذلك قوله : ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾[٢١] ومثل هذا كثير جداً ومما يبين عدم إفادتها للحصر قوله ﷺ : « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[٢٢] فلو كانت (إنما) للحصر لبطلت أن تكون سائر آيات النبى – ﷺ – ومعجزاته سوى القرآن آيات له تدل على صدقه لاعترافه بنفى ذلك وهذا باطل قطعا فدل على أن (إنما) لا تفيد الحصر فى مثل هذا الكلام وشبهه .

والصواب أنها تدل على الحصر ودلالتها عليه معلوم بالاضطرار من لغة العرب كما يعلم من لغتهم بالاضطرار معانى حروف الشرط والاستفهام والنفى والنهى وغير ذلك ولهذا يتوارد (إنما) وحروف الشرط والاستفهام والنفى الاستثناء كما فى قوله تعالى : ﴿ **إنما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُم تعملون** ﴾[٢٣] وقوله : ﴿ **أنما إلهكم إله واحد** ﴾ وقوله : ﴿ **إنما الله**

---

(١٩) سورة النساء الآية : ١٧١ .

(٢٠) سورة فصلت الآية : ٦ .

(٢١) سورة الرعد الآية : ٧ .

(٢٢) **حديث صحيح** : رواه الإمام أحمد فى المسند (٢٤١/٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٣٤) وأبو عوانه فى مسنده (١١٠/١) .

(٢٣) سورة الطور الآية : ١٦ .

(٢٤) سورة فصلت الآية : ٦ .

إله واحد ﴾ ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ﴾[٢٦] فإنه كقوله : ﴿ وما من إله إلا الله ﴾[٢٧] وقوله : ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾[٢٨] ونحو ذلك ولهذا كانت كلها واردة فى سياق نفى الشرك وإبطال إلهية ما سوى الله سبحانه وأما أنها مركبة من (إنَّ) و (ما) الكافة فمُسَلَّم ولكن قولهم إن (ما) الكافة أكثر ما تفيده قوة التوكيد لا تثبت معنى زائداً ، يجاب عنه من وجوه .

أحدهما : أن (ما) الكافة قد تُثبت بدخولها على الحروف معنى زائدا وقد ذكر ابن مالك أنها إذا دخلت على الباء أحدثت معنى التقليل كقول الشاعر :

فالآن صرت لا تجيد جوابا بما قد يرى وأنت حطيب

قال وكذلك تحدث فى الكاف معنى التعليل فى نحو قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾[٢٩] ولكن قد نوزع فى ذلك وادعى أن الباء والكاف للسببية وأن الكاف بمجردها تفيد التعليل .

والثانى : أن يقال لا ريب أن (إن) تفيد توكيد الكلام و (ما) الزائدة تقوى هذا التوكيد وتثبت معنى الكلام فتفيد ثبوت ذلك المعنى المذكور فى اللفظ خاصة ثبوتا لا يشاركه فيه غيره واختصاصه به وهذا من نوع التوكيد والثبوت ليس معنى آخر مغايرا له وهو الحصر المدعى ثبوته بدخول (ما) يخرج عن إفادة قوة معنى التوكيد وليس ذلك بمنكر

---

(٢٥) سورة النساء الآية : ١٧١ .
(٢٦) سورة طـه الآية : ٩٨ .
(٢٧) سورة ص الآية : ٦٥ .
(٢٨) سورة الأعراف الآية : ٥٩ .
(٢٩) سورة البقرة الآية : ١٩٨ .

إذ المستنكر ثبوت معنى آخر بدخول الحرف الزائد من غير جنس ما يفيده الحرف الأول .

الوجه الثالث : أن (إنَّ) المكفوفة (بما) استعملت فى الحصر فصارت حقيقة عرفية فيه واللفظ يصير له بالاستعمال معنى غير ما كان يقتضيه أصل الوضع وهكذا يقال فى الاستثناء فإنه وإن كان فى الأصل للإخراج من الحكم لكن صار حقيقة عرفية فى مناقضة المستثنى فيه وهذا شبيه بنقل اللفظ عن المعنى الخاص إلى العام إذا صار حقيقة عرفية فيه لقولهم « لا أشرب له شربة ماء » ونحو ذلك ولنقل الأمثال السائرة ونحوها مما ليس هذا موضع بسطه وهذا الجواب ذكره أبو العباس ابن تيمية[٣٠] فى بعض كلامه القديم وهو يقتضى أن دلالة (إنما) على الحصر إنما هو بطريق العرف والاستعمال لا بأصل وضع اللغة . وهو قول حكاه غيره فى المسألة .

وأما قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾[٣١] .

---

(٣٠) **ابن تيمية** : (٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الخضر النمرى الحرانى الدمشقى الحنبلى ، أبو العباس ، تقى الدين ابن تيمية الإمام ، شيخ الإسلام ، ولد فى حران ، وتحول به أبوه إلى دمشق فتبغ واشتهر وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة ونقل إلى الإسكندرية . ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠ وأطلق ثم أعيد ومات معتقلا بقلعة دمشق . كان كثير البحث فى فنون الحكمة ، داعية إصلاح فى الدين آية فى التفسير والأصول ، فصيح اللسان ، قلمه ولسانه متقاربان أفتى ودرس وهو دون العشرين من تصانيفه التى بلغت نحوًا من ثلاثمائة مجلد « الجوامع » و « الفتاوى » و « الإيمان » و « منهاج السنة » و « مجموعة الرسائل والمسائل » خمسة أجزاء و « التوسل والوسيلة » إلى غير ذلك .

(٣١) سورة الأنفال الآية : ٢ .

وقوله ﷺ : «إنما الربا فى النسيئة» «إنما الشهر تسع وعشرون» وقولهم : « إنما العالم زيد » ونحو ذلك فيقال معلوم من كلام العرب أنهم ينفون الشيء فى صيغ الحصر وغيرها تارة لانتفاء ذاته وتارة لانتفاء فائدته ومقصوده ويحصرون الشيء فى غيره تارة لانحصار جميع الجنس فيه وتارة لانحصار المفيد أو الكامل فيه ثم إنهم تارة يعيدون النفى إلى المسمى وتارة إلى الاسم وإن كان ثابتا فى اللغة إذا كان المقصود الحقيقى بالاسم منتفيا عنه ثابتا لغيره لقوله تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾[٣٢] فنفى عنهم مسمى الشيء مع أنه فى الأصل شامل لكل موجود من حق وباطل كما كان ما لا يفيد ولا منفعة فيه يؤول إلى الباطل الذى هو العدم فيصير بمنزلة المعدوم بل قد يكون أولى بالعدم من المعدم المستمر عدمه لأنه قد يكون فيه ضرر فمن قال الكذب فلم يقل شيئا ولم يعمل ما ينفعه بل ما يضره ولهذا لما سئل النبى ﷺ عن الكفار فقال : « ليسوا بشيء »[٣٣] ويقول أهل الحديث عن بعض الرواة المجروحين والأحاديث الواهية ليس بشيء إذا لم يكن مما ينتفع به فى الرواية لظهور لديه عمدا أو خطأ ويقال أيضا لمن خرج عن موجب الإنسانية فى الأخلاق ونحوها هذا ليس بآدمى ولا إنسان وما فيه إنسانية ومنه قول النسوة فى يوسف عليه السلام ﴿ **ما هذا بشرا إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم** ﴾[٣٤] وكذلك

---

(٣٢) سورة المائدة الآية : ٦٨ .

(٣٣) **حديث صحيح** : رواه أحمد فى المسند (٨٧/٦) ، والبخارى فى صحيحه (٥٨/٨) ، ورواه مسلم (٢٢٢٨) ، وعبد الرزاق (٢٠٣٤٧) فى مصنفه ، وابن حبان (٦٤٨/٧) .

(٣٤) سورة يوسف الآية : ٣١ .

قول الله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[٣٥] وقول النبى ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان إنما المسكين الذى لايجد ما يغنيه[٣٦] ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » وكذلك قال : « ما تعدون المفلس فيكم ؟ قالوا : الذى لا درهم له ولا دينار قال : ليس ذلك بالمفلس ولكن المفلس من يأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ويجىء وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا لم يتبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم ألقى فى النار »[٣٧] وقال : « ما تعدون الرقوب فيكم ؟! قالوا : الرقوب من لا يولد له . قال الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً »[٣٨] .

وكذلك قوله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٣٩] وقوله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس »[٤٠] .

---

(٣٥) سورة الحج الآية : ٤٦ .

(٣٦) **حديث صحيح** : أخرجه البخارى (١٥٢/٢) ، ومسلم (١٠٣٩) ، وأبو داود (١٦٣١) ، والنسائى (٨٥/٥) ، وأحمد (٣٨٤/١) ، وابن حبان (١٢٥/٥) .

(٣٧) **حديث صحيح** : مسلم البر والصلة (٥٩) ، والترمذى (٢٤١٨) ، والبيهقى فى الكبرى (٩٣/٦) ، والخطيب فى تاريخ بغداد (٢٣/٤) .

(٣٨) **حديث صحيح** . أخرجه مسلم (٢٦٠٨) ، وأحمد (٣٨٢/١) ، والبخارى فى الأدب المفرد برقم (١٥٤) ، ورواه عبد الرزاق فى المصنف (٢٠١٤٢) ، والبيهقى (٦٨/٤) .

(٣٩) **حديث صحيح** : رواه البخارى (٣٤/٦) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

(٤٠) **حديث صحيح** : رواه أحمد فى المسند (٢٤٣/٢ ، ٤٤٣) ، والبخارى (١١٨/٨) ، ومسلم (١٠٥١) ، والترمذى (٣٣٧/٤) ، وابن ماجه (٤١٣٧) .

وأمثال ذلك فهذا كله نفى لحقيقة الاسم من جهة المضى الذى يجب اعتباره فإن اسم الرقوب والمفلس والغنى والشديد ونحو ذلك إنما يتعارفه الناس فيمن عدم ماله وولده أو حصل له مال أو قوة فى بدنه ، والنفوس تجزع من الأُوَّلَيْن وترغب فى الآخرَيْن فيعتقد أنه هو المستحق لهذا الاسم دون غيره فبيَّن ﷺ أن حقيقة ذلك المعنى ثابتة لغير هذا المتوهم على وجه ينبغى بعلو الاعتقاد والقصد بذلك الغير فإن من عدم المال والولد يوم القيامة حيث يضر عدمه أحق باسم المفلس والرقوب ممن يعدمهما حيث قد لا يتضرر بذلك تضررا معتبرا ولذلك وجود غنى النفس وقوتها أحق بالمدح والطلب من قوة البدن وغنى المال وهكذا قول ﷺ : « إنما الربا فى النسيئة أَوْ لا ربا إلا فى النسيئة »(٤١) فإن الربا العام الشامل للجنسين والجنس الواحد المتفقة صفاته إنما يكون فى النسيئة وأما ربا الفضل فلا يكون إلا فى الجنس الواحد ولا يفعله أحد إلا إذا اختلفت الصفات كالمضروب بالتبر والجيد بالردىء فأما مع استواء الصفات فلا يبيع أحداً درهما بدرهمين وأيضاً فربا الفضل إنما حُرِّم لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة كما فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين إنى أخاف عليكم الربا »(٤٢) .

فالربا المقصود بالقصد الأول هو ربا النسيئة فإذا بيع مائة بمائة وعشرين مع اتفاق الصفات ظهرت أن الزيادة قابلت الأجل الذى لا منفعة فيه وإنما دخل فيه للحاجة ، ولهذا لا يضمن الآجال باليد

---

(٤١) **حديث صحيح** . رواه أحمد فى المسند (٢٠٨/٥) ومسلم (١٥٩٦) ، والنسائى (٢٨١/٧) ، وابن ماجه (٢٢٥٧) ، والبغوى (٦١/٨) فى شرح السنة .

(٤٢) **حديث صحيح** . أخرجه مسلم (١٥٨٥) ، وأحمد (١٠٩/٢) ، والبيهقى (٢٧٨/٥) فى سننه الكبرى ، والخطيب (٣٩٣/٣) فى تاريخه .

فلو بقيت العين فى يده ، أو المال فى ذمته مدة لم يضمن الأجل بخلاف زيادة الصفة فإنها مضمونه فى الإتلاف ، والغصب وفى المبيع إذا قابلت غير الجنس ، فلهذا قيل إنما الربا فى النسيئة ولا ربا إلا فى النسيئة ، فإن المستحق لاسم الربا فى الحقيقة هو ربا النسيئة ولذلك نفى الأسماء الشرعية لانتفاء بعض واجباتها لقوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ... إلى قوله : **أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾[٤٣] فهؤلاء هم المستحقون لهذا الاسم على الحقيقة الواجبة دون من أخل بشيء من واجبات الإيمان والإسلام عن من انتفى عنه بعض واجباتهما لقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »[٤٤] الحديث وقوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[٤٥] وقوله : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[٤٦] و « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » ومثل هذا كثير وكذلك قوله ﷺ : « إنما الشهر تسع

---

(٤٣) سورة الأنفال الآية : ٢ – ٤ .

(٤٤) **حديث صحيح** . رواه البخارى (١٧٨/٣) ، (١٣٦/٧) ، ١٩٥/٨ ، ١٩٧) ومسلم / الإيمان ب ٢٤ رقم (١٠٠) ، (١٠٥) ، وأبو داود (٤٦٨٩) والترمذى (٢٦٢٥) ، والنسائى (٦٤/٨ ، ٦٥ ، ٣١٣) وابن ماجه (٣٩٣٦) .

(٤٥) **حديث صحيح** . أخرجه البخارى (١٩/١) ، (١٢٧/٨) ، وأحمد (١٦٣/٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٤) ، وأبو داود (٢٤٨١) ، والنسائى (١٠٥/٨) ، والبيهقى (١٨٧/١٠) فى سننه الكبرى .

(٤٦) **حديث حسنٌ** . أخرجه الترمذى (٢٧٦٢) ، وأحمد (٣٧٩/٢) ، والنسائى (١٠٤/٨ – ١٠٥) ، وابن ماجه (٢٩٣٤) ، والحاكم (١١/١) ، وابن حبان (٢٦) .

(*) **حديث حسن** . أخرجه أحمد (٢٠/٦ ، ٢١) ، والترمذى (١٦٧١) ، وابن حبان (١٦٢٤) ، (٢٥١٩) ، والطبرانى (٣٠٩/١٨) فى الكبير .

وقوله : « الشهر تسع وعشرون » فإن هذا هو عدد الشهر اللازم الدائم واليوم الزائد على ذلك أمر جائز يكون فى بعض الشهور ولا يكون فى بعضها بخلاف التسعة والعشرين فإنه يجب عددها واعتبارها بكل مال وهذا كما يقال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فهذا هو الذى لابد منه وما زاد على ذلك فقد يجب على الإنسان وقد يموت قبل التمكن فلا يكون الإسلام فى حقه إلا ما تكلم به وحاصل الأمر أن الكلام الخبرى هو إما اثبات أو نفى فكما أنهم فى الإثبات يثبتون للشىء اسم الشىء إذا حصل فيه مقصود الاسم وإن انتفت صورة المسمى فكذلك فى النفى فإن أدوات النفى تدل على انتفاء الاسم بانتفاء مسماه فذلك تارة لأنه لم يوجد أصلا وتارة لأنه لم توجد الحقيقة المقصودة بالمسمى وتارة لأنه لم تكن تلك الحقيقة وتارة لأن ذلك المسمى مما لا ينبغى أن يكون مقصودا بل المقصود غيره وتارة لأسباب أُخر وهذا كله إنما يظهر من سياق الكلام وما اقترن به من القرائن اللفظية التى لا تخرجه عن كونه حقيقة عند الجمهور ولكون المركب قد صار موضوعا لذلك المعنى أو من القرائن الحالية التى تجعله مجازا عند الجمهور وأما إذا أطلق الكلام مجردا عن القرينتين فمعناه السلب المطلق وهو أكثر الكلام وهذا الجواب ملخص من كلام شيخ الإسلام أبى العباس ابن تيمية – رحمه الله – وأما قوله تعالى : ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾[٤٧] وقوله : ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾[٤٨] ونحو ذلك فالجواب عنه أن يقال الحصر تارة يكون عاما كقوله : ﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو** ﴾[٤٩] ونحو ذلك وتارة يكون خاصًّا مما يدل عليه سياق الكلام

---

(٤٧) سورة النساء الآية : ١٧١ .

(٤٨) سورة الرعد الآية : ٧ .

(٤٩) سورة طه الآية : ٩٨ .

فليس الحصر أن ينفى عن الأول كلما سوى الثانى مطلقا بل قد ينفى عنه ما يتوهم أنه ثابت له من ذلك النوع الذى أثبت له فى الكلام فقوله : ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ فيه نفى تعدد الإلهيّة فى حقه سبحانه وأنه لا إله غيره ليس المراد أنه لا صفة له سوى وحدانية الإلهية وكذلك قوله : ﴿ **إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد** ﴾[٥٠] فإن المراد به أنه لم يوح إلىَّ فى أمر الإلهية إلا التوحيد لا الإشراك والعجب . إن أبا حيّان الأندلسى[٥١] أنكر على الزمخشرى[٥٢] ادعاءه الحصر فى هذه الآية لاستلزامه عنده أنه لم يوح إليه غير التوحيد قال لأن الحصر إنما يلقى من جهة أنما المفتوحة الهمزة قال ولا يعرف القول بإفادتها الحصر إلا عند الزمخشرى وحده ورد ذلك عليه شيخنا أبو محمد بن هشام بناء على أن (أنْ) المفتوحة فرع عن إن المكسورة على الصحيح قال : ولهذا صح للزمخشرى أن يدعى أنها تفيد الحصر كإنما انتهى وهذا كله لا حاجة إليه فى هذه الآية فإن الحصر مستفاد فيها من إنما المكسورة التى فى أول الآية

---

(٥٠) سورة فصلت الآية : ٦ .

(٥١) **أبو حيان الأندلسى** : هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى ، الأندلسى الجيانى ، أثير الدين ، أبو حيان : من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث ، والتراجم واللغات ، ولد فى إحدى جهات غرناطة ، ورحل إلى مالقة وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة وتوفى فيها سنة ٧٤٥ هـ . بعد أن كف بصره واشتهرت تصانيفه فى حياته وقرئت عليه ، من كتبه « البحر المحيط » فى تفسير القرآن ثمانى مجلدات ، و « مجانى العصر » فى تراجم رجال عصره ، و « طبقات نحاة الأندلس » و « منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك » إلى غير ذلك . الأعلام (١٥٢/٧) .

(٥٢) **الزمخشرى** : محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى الزمخشرى جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير ، واللغة والآداب ، ولد فى زمخشر من قرى خوارزم وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا ، وتنقل فى البلدان ثم عاد إلى الجرجانية فتوفى فيها . أشهر كتبه « الكشاف » فى تفسير القرآن ، و « أساس البلاغة » و « المفصل » و « الفائق » فى غريب الحديث وكان معتزلى المذهب مجاهراً ، شديد الإنكار على المتصوفة ، أكثر من التشنيع عليهم فى الكشاف وغيره . الأعلام (١٧٨/٧)

فلو فرض أن (أنما) المفتوحة لا تفيد الحصر لم ينتف بذلك الحصر فى الآية على ما لا يخفى وكذلك قوله تعالى : ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾[٥٣] أى لست ربا لهم ولا مُجازيا ولا محاسبا وليس عليك أن تخبرهم على الإيمان ولا أن تتكلف لهم طلب الآيات التى يقترحونها عليك ﴿**إنما أنت منذر**﴾ فليس عليك إلا الإنذار كما قال : ﴿ **إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾[٥٤] وقال : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر** ﴾[٥٥] ومن ها هنا يظهر الجواب عن قوله : « إنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىَّ » فإنه قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة »[٥٦] فالكلام إنما سيق لبيان آيات الأنبياء العظام الذى آمن لهم بسببها الخَلْق الكثير ، ومعلوم أن أعظم آيات النبى – ﷺ – التى آمن عليها أكثر أمته هى الوحى وهو الذى كان يدعو به الخلق كلهم ، ومن أسلم فى حياته خوفا فأكثرهم دخل الإيمان فى قلبه بعد ذلك بسبب سماع الوحى لمسلمى الفتح ، وغيرهم ، فالنفى توجه إلى أنه لم تكن آياته التى أوجبت إسلام الخلق الكثير من جنس ما كان لمن قبله مثل ناقة صالح وعصا موسى ويده وإبراء المسيح الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك ، فإن هذه أعظم آيات الأنبياء قبله وبها آمن البشر لهم وأما آيته هو – ﷺ – التى آمن البشر عليها فى حياته وبعد وفاته فهى الوحى التى أوحى إليه وهى التى توجب إيمان البشر إلى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **وأوحى إلىَّ هذا القرآنَ**

---

(٥٣) سورة الرعد الآية : ٧ .

(٥٤) سورة الرعد الآية : ٤٠ .

(٥٥) سورة الغاشية الآية : ٢١ ، ٢٢ .

(٥٦) مر تخريجه برقم (٢٢) .

لأُنذِرَكُم به ومن بلغ ﴾[٥٧] ولهذا قيل إن آيات الأنبياء انقطعت بموتهم وآياته – ﷺ – باقية إلى يوم القيامة ، ومما يبين أن الحصر لم ينتف عن (إنما) فى شىء من هذه الأنواع التى توهموها أن الحصر قد جاء فيها وفى مثلها بإلَّا كما جاء (بإنما) فإنه جاء (لا ربا إلا فى النسيئة) كما جاء (إنما الربا فى النسيئة) وجاء فى القرآن ﴿ **وما محمدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسُل** ﴾[٥٨] كما جاء : ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ وكذلك قوله : ﴿ **ما المسيحُ ابنُ مَرْيمَ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل** ﴾[٥٩] ومثل ذلك كثير فهذا وجه إفادتها الحصر فى هذه الآية على القول المشهور وهو (إنما) فى قوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ هى الكافة وأما على قول من جعلها موصولة فتفيد الحصر من جهة أخرى وهو أنها إذا كانت موصولة فتقدير الكلام (إن الذين يخشون الله هم العلماء) وهذا أيضا يفيد الحصر فإن الموصول يقتضى العموم لتعريفه وإذا كان عاما لزم أن يكون خبره عاما أيضا لئلا يكون الخبر أخص من المبتدأ وهذا النوع من الحصر يسمى حصر المبتدأ فى الخبر ومتى كان المبتدأ عاما فلا ريب إفادته الحصر وأما دلالة الآية على الثالث وهو نفى العلم من غير أهل الخشية فمن جهة الحصر أيضا فإن الحصر المعروف المطرد فهو حصر الأول فى الثانى وهو هاهنا حصر الخشية فى العلماء وأما حصر الثانى فى الأول فقد ذكره الشيخ أبو العباس ابن تيمية – رحمه الله – وأنه قد يكون مراداً أيضا فيصير الحصر من الطرفين ويكونان متلازمين ومثل ذلك كقوله : ﴿ **إنما تنذرُ من اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ**

---

(٥٧) سورة الأنعام الآية : ١٩ .

(٥٨) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

(٥٩) سورة المائدة الآية : ٧٥ .

الرحمنَ بالغيب ﴾[٦٠] ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾[٦١] ﴿ إنما يؤمنُ بآياتِنَا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سجَّدًا وسبَّحُوا بِحَمْدِ ربِّهم وهم لا يستَكْبِرُون تَتَجَافى جُنُوبُهم عن المضاجِعِ ﴾[٦٢] قال وكذلك الحصر فى هذه الآية أعنى قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فتقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم وتقتضى أيضا أن العالم من يخشى الله وبيان الحصر الذى ذكره الشيخ – رحمه الله – فى هذه الآيات أن قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ فيه الحصر من الطرفين فإن اقتضى أن إنذاره مختص بمن اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فإن هذا هو المختص بقبول الإنذار الانتفاع به فلذلك نفى الإنذار عن غيره ، والقرآن مملوٌ بأن الإنذار إنما هو للعاقل له خاصة ، ويقتضى أنه لا يتبع الذكر ويخشى الرحمن بالغيب إلا من أنذره أى من قَبِلَ إنذاره وانتفع به فإن اتباع الذكر ، وخشية الرحمن بالغيب مختصة بمن قَبِلَ الإنذار كما يختص قبول الإنذار ، والانتفاع بأهل الخشية واتباع الذكر وكذلك قوله : ﴿ إنما أنت مُنْذِرُ من يخشاها ﴾ وقوله : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا به خرّوا سجداً ﴾ الآية فإن انحصار الإنذار فى أهل الخشية كانحصار أهل الخشية فى أهل الإنذار ، والذين خرّوا سجدا فى أهل الإيمان ونحو ذلك فكذلك قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقد فسرها السلف بذلك أيضا كما سنذكره – إن شاء الله تعالى – ونذكر شواهده وهاهنا نكتة حسنة وهى أن قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قد علم أنه يقتضى ثبوت الخشية

---

(٦٠) سورة يسٓ الآية : ١١ .

(٦١) سورة النازعات الآية : ٤٥ .

(٦٢) سورة السجدة الآية : ١٥ .

للعلماء للرهل[٦٣] يقتضى ثبوتها لجنس العلماء كما يقال إنما يحج المسلمون أو لا يحج إلا مسلم فيقتضى ثبوت الحج لجنس المسلمين لا لكل فرد وفرد منهم أو يقتضى ثبوت الخشية لكل واحد من العلماء ؟ هذا الثانى هو الصحيح وتقريره من جهتين :

الجهة الأولى : أن الحصر هاهنا من الطرفين حصر الأول فى الثانى وحصر الثانى فى الأول كما تقدم بيانه فحصر الخشية فى العلماء **يفيد أن كل من خشى الله فهو عالم** وإن لم يُفِد لمجرده أن كل عالم فهو يخشى الله **وتفيد أن من لا يخشى فليس بعالم** وحصر العلماء فى أهل الخشية يفيد **أن كل عالم فهو خاشٍ** فاجتمع من مجموع الحصرين ثبوت الخشية لكل فرد من أفراد العلماء .

والجهة الثانية : أن المحصور هل هو مقتض للمحصور فيه أو هو شرط له قال الشيخ أبو العباس – رحمه الله – وفى هذه الآية وأمثالها هو مقتضى فهو عام فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف ومراده بالمقتضى – العلة المقتضية – وهى التى يتوقف تأثيرها على وجود شروط وانتفاء موانع كأسباب الوعد والوعيد ونحوهما فإنها مقتضيات وهى عامة ومراده بالشرط ما يتوقف تأثير السبب عليه بعد وجود السبب وهو الذى يلزم من عدمه عدم المشروط ولا يلزم من وجوده وجود المشروط كالإسلام بالنسبة إلى الحج والمانع بخلاف الشرط وهو ما يلزم من وجوده العدم ولا يلزم من عدمه الوجود وهذا الفرق بين السبب والشرط وعدم المانع إنما يتم على قول من يُجوز تخصيص العلة وأما من لا يسمى علة إلا ما استلزم الحكم ولزم من وجودها وجوده على كل حال فهؤلاء عندهم الشرط وعدم المانع من جملة أجزاء العلة والمقصود هنا أن العلم إذا

---

(٦٤) هكذا بالأصل ولعل الصواب « للرب فهل » .

كان سببا مقتضيا للخشية كان ثبوت الخشية عاما لجميع أفراد العلماء لا يتخلف إلا لوجود مانع ونحوه .

فصل [كيف تكون الخشية]

قد تقدم بيان دلالة الآية على أن من خشى الله وأطاعه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو عالم لأنه لا يخشاه إلا عالم ، وعلى نفى الخشية عن غير العلماء ونفى العلم عن غير أولى الخشية أيضا وأن من لم يخش الله فليس بعالم وبذلك فسرها السلف .

فعن ابن عباس(٦٤) قال : « يريد إنما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وجلالى وسلطانى » .

وعن مجاهد والشعبى(٦٥) « العالم من خاف الله » .

---

(٦٤) **ابن عباس** : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى ، أبو العباس حبر الأمة ، الصحابى الجليل ، ولد بمكة ونشأ فى بدء عصر النبوة ، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع على الجمل وصفين ، وكف بصره فى آخر عمره ، فسكن الطائف وتوفى بها (٦٨ هـ) قال ابن مسعود : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » وقال عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر .

الأعلام (٤/٩٥)

(٦٥) **الشَّعْبى** : هو عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار ، الشعبى الحميرى ، أبو عمرو : راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة ، وسئل عما بلغ إليه حفظه ، فقال : ما كتبت سوداء فى بيضاء ، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته ، وهو من رجال الحديث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز ، وكان فقيها شاعراً ، واختلفوا فى اسم أبيه .

تهذيب التهذيب (٥/٦٥) حلية الأولياء (٤/٣١٠) الوفيات (١/٢٤٤)

وعن ابن مسعود(٦٦) قال : « كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً » .

وذكر ابن أبى الدنيا(٦٧) عن عطاء الخراسانى فى هذه الآية : « العلماء بالله الذين يخافونه » .

وعن الربيع بن أنس(٦٨) فى هذه الآية قال : « من لم يخش الله فليس بعالم ألا ترى أن داود قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك

---

(٦٦) **ابن مسعود** : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى ، أبو عبد الرحمن صحابى من أكابرهم فضلا وعقلا وقربا من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره ورفيقه فى حله وترحاله وغزواته ، يدخل عليه كل وقت ويمشى معه نظر إليه عمر يوما وقال : « وعاء ملىء علما » وولى بعد وفاة النبى ﷺ بيت مال الكوفة توفى ٣٢ هـ .

(٦٧) **ابن أبى الدنيا** : هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبى الدنيا القرشى الأموى مولاهم البغدادى ، أبو بكر : حافظ للحديث ، مكثر من التصنيف . أدَّب الخليفة المعتضد العباسى فى حداثته ، ثم أدب ابنه المكتفي . له مصنفات اطلع الذهبى على ٢٠ كتابا منها ثم ذكر أسماءها كلها فبلغت ١٦٤ كتاباً منها : « الفرج بعد الشدة » و « مكارم الأخلاق » و « ذم الملاهى » و « اليقين » و « الشكر » و « قضاء الحوائج » و « ذم الدنيا » و « الصمت » وغير ذلك وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس ، إن شاء أضحك جليسه وإن شاء أبكاه مولده (٢٠٨ هـ) – ووفاته (٢٨١ هـ) ببغداد .

الأعلام (١١٨/٤)

(٦٨) **الربيع بن أنس** : هو الربيع بن زياد بن أنس الحارثى من بنى الديان : أمير فاتح ، أدرك عصر النبوة وولى البحرين ، وقدم المدينة فى أيام عمر وولاه عبد الله بن عامر سجستان سنة ٢٩هـ ففتحت على يديه . له مع عمر بن الخطاب أخبار ، وكان شجاعاً تقياً ، قال عمر لأصحابه يوماً : دلونى على رجل إذا كان فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير وإذا لم يكن بأمير فكأنه أمير . فقالوا : ما نعرفه إلا الربيع بن زياد . فقال : صدقتم . توفى فى إمارته سنة ٥٣ هـ .

الإصابة فى تمييز الصحابة(٥٠٤/١)الأعلام (١٤/٣)

والحكمة والإيمان بك وما علم من لم يخشك وما حكم من لم يؤمن بك » .

وعن الربيع عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ **يُؤتى الحكمة من يَشاءُ** ﴾ قال : « الحكمة الخشية فإن خشية الله رأس كل حكمة » .

وروى الدارمى من طريق عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال : « من خشى الله فهو عالم » .

وعن يحيى بن جعدة[٧٠] عن على قال : « يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم فوافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم ولا يجاوز تراقيهم يخالف علمهم عملهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيباهى بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله عز وجل » .

وعن مسروق قال كفى بالمرء علماً أن يخشى الله عز وجل وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : لا يكون الرجل عالما حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغى بعلمه ثمنا وعن أبى حازم نحوه .

ومنه قول الحسن إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه .

(٦٩) سورة البقرة الاية : ٢٦٩ .

(٧٠) **يحيى بن جعدة** : هو يحيى بن جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، ثقة وقد أرسل عن ابن مسعود ونحوه ، من الثالثة .

انظر تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٣٤٤/٢)

وعن عبيد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام من أرباب العلم ؟! قال : الذين يعملون بما يعلمون .

وقال رجل للشعبى أفتنى أيها العالم فقال : إنما العالم من يخاف الله .

وعن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه قال: علامة العلم خشية الله عز وجل .

وسئل سعد بن إبراهيم مَنْ أفقهُ أهل المدينة ؟قال أتقاهم لربه.

وسئل الإمام أحمد عن معروف وقيل له هل كان معه علم فقال كان معه أصل العلم خشية الله عز وجل ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِت آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يَعْلمون**﴾(٧١) وكذلك قوله تعالى : ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب**﴾(٧٢) .

وقوله : ﴿ **أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم** ﴾(٧٣) وقوله : ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾(٧٤) .

قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن هذه الآية : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من**

---

(٧١) سورة الزمر الآية : ٩ .
(٧٢) سورة النساء الآية : ١٧ .
(٧٣) سورة الأنعام الآية : ٥٤ .
(٧٤) سورة النحل الآية : ١١٩ .

قريب ﴾[٧٥] فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال أجمع أصحاب رسول الله - ﷺ - على أن كل من عصى ربه فهو جاهل جهالة عمدًا كان أو لم يكن وكل من عصى ربه فهو جاهل .

وقال مجاهد : من عمل ذنبا من شيخ أو شاب فهو بجهالة ، وقال أيضاً : من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته ، وقال أيضاً : من عمل سوءًا خطئاً أو إثماً فهو جاهل حتى ينزع منه ، وقال أيضاً هو وعطاء الجهالة العمد ، رواهنّ ابن أبى حاتم وغيره قال وروى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثورى نحو ذلك .

وروى عن مجاهد ، والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراما ولكن من جهالته حين دخل فيه .

وقال عكرمة الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصرى أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا علموا قال فليخرجوا منها فإنها جهالة .

[بيان أن العلم يوجب الخشية]

ومما يبين أن العلم يوجب الخشية وأن فقده يستلزم فقد الخشية وجوه .

إحداها : أن العلم بالله تعالى وماله من الأسماء والصفات كالكبرياء والعظمة والجبروت ، والعزة وغير ذلك يوجب خشيته وعدم ذلك يستلزم فقد هذه الخشية ، وبهذا فسر الآية ابن عباس فقال يريد إنما

(٧٥) سورة النساء الآية : ١٧ .

يخافنى من علم جبروتى ، وعزتى ، وجلالى وسلطانى ، ويشهد لهذا قول النبى - ﷺ - « إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية »(٧٦) وكذلك قوله - ﷺ - : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »(٧٧) وفى المسند ، وكتاب الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر عن النبى - ﷺ - قال : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطَّتْ وحق لها أن تَئِطَّ ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله - عز وجل - والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا(*) ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل »(٧٨) وقال الترمذى حسن غريب .

قال ويروى عن أبى ذر موقوفا وذكر أبو نعيم(٧٩) وغيره بالإسناد عن ابن عباس أنه قال للنفر الذين كانوا يختصمون ويتمارون « أو ما علمتم أن لله عباداً أصمتتهم خشية الله من غير بُكم ولا عَىٍّ وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله غير أنهم إذا تذكروا عظمة

---

(٧٦) **حديث صحيح** . أخرجه البخارى (٢/٧) ، ومسلم (١٤٠١) ، وابن حبان (٢٦٨/١) ، والبيهقى (٧٧/٧) فى سننه الكبرى .

(٧٧) **حديث صحيح** . أخرجه البخارى (٤٣/٢) ، (٦٨/٦) ، ومسلم (٢٣٥٩) ، وأحمد (٢١٣/٢ ، ٤٣٢) ، والترمذى (٢٣١٢) ، والنسائى (١٣٣/٣) ، وابن ماجه (٤١٩٠) ، والدارمى (٣٠٦/٢) ، وابن حبان (١٨٧١) .

(*) هذا الجزء صح بمفرده .

(٧٨) **إسناده ضعيف** . أخرجه الترمذى (٢٤١٤) ، وفى سنده إبراهيم بن المهاجر ، وفيه لينٌ كما فى الميزان (٦٧/١) ، والتقريب (٤٤/١) .

(٧٩) **أبو نعيم** : هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى ، أبو نعيم : حافظ ، مؤرخ ، من الثقات فى الحفظ والرواية ، ولد ومات فى أصبهان (٣٣٦ هـ - ٤٣٠ هـ) من تصانيفه « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » عشرة أجزاء ، و « معرفة الصحابة » و « طبقات المحدثين والرواة » و « دلائل النبوة » و « ذكر أخبار أصبهان » مجلدان ، وكتاب « الشعراء » . بالأعلام (١٥٧/١)

الله طاشت لذلك عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزكية يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء مع الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار بُرءاء إلّا أنهم لا يستكثرون إلا الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال هم حيث ما لقيتموهم مهتمون مشفقون وَجِلُون خائفون » .

وروى ابن أبى الدنيا أثرًا عن زناد بن أبى حبيب أنه بلغه أن من حملة العرش من [سال] من عينه أمثال [الأنهار] من البكاء فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك قال تعالى ذكره لكن الذين يحلفون باسمى كاذبون لا يعلمون ذلك .

وعن بريد الرقاش قال : إن لله تبارك وتعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنهم ينفضهم الريح من خشية الله فيقول الرب عز وجل يا ملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى فيقولون يارب لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك ، وعظمتك على ما اطلعنا عليها ما أساغوا طعاما ، ولا شرابا ولا انبسطوا فى فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر ومثل هذا كثير جدًا ، والمقصود أن العلم بالله وأسمائه وصفاته ، وأفعاله من قدره ، وخلقه ، والتفكير فى عجائب آياته المسموعة المتلوة وآياته المشاهدة المرئية من عجائب مصنوعاته ، وحكم مبتدعاته ونحو ذلك مما يوجب خشيته وإجلاله ، ويمنع من ارتكاب نهيه ، والتفريط فى أوامره وهو أصل العلم النافع ولهذا قال طائفة من السلف لعمر بن عبد العزيز وسفيان بن عيينة أعجب الأشياء قلب عرف ربه ثم عصاه .

وقال بشر بن الحارث لو يفكر الناس فى عظمة الله لما عصوا الله وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

فواعجباً كيف يعصى الإلـ ـه وكيف يجحده الجاحدُ
ولله فى كلّ تحريكـــة وتسكينـةٍ أبـداً شاهـدُ
وفى كل شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنـه واحـدُ

الوجه الثانى : أن العلم بتفاصيل أمر الله ونهيه والتصديق الجازم بذلك ومما يترتب عليه من الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، مع تيقن مراقبة الله واطلاعه ، ومشاهدته ، ومقته لعاصيه وحضور الكرام الكاتبين كل هذا يوجب الخشية ، وفعل المأمور وترك المحظور ، وإنما يمنع الخشية ، ويوجب الوقوع فى المحظورات الغفلة عن استحضار هذه الأمور والغفلة من أضداد العلم والغفلة والشهوة أصل الشر قال تعالى : ﴿ **ولا تُطِعْ من أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا واتَّبع هَوَاهُ وكان أمْرُهُ فُرُطَا** ﴾[٨٠] والشهوة وحدها لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل فإن صاحب الهوى لو استحضر هذه الأمور المذكورة وكانت موجودة فى ذكره لأوجبت له الخشية القامعة لهواه ولكن غفلته عنها مما يوجب نقص إيمانه الذى أصله التصديق الجازم المترتب على التصور التام ولهذا كان ذكر الله وتوحيده والثناء عليه يزيد الإيمان والغفلة والإعراض عن ذلك يضعفه وينقصه كما كان يقول من يقول من الصحابة « اجلسوا بنا نؤمن ساعة » .

وفى الأثر المشهور عن حماد بن سلمة عن أبى جعفر الخطمى عن جده عمير بن حبيب وكان من الصحابة قال : « الإيمان يزيد وينقص قيل وما زيادته ونقصانه قال : إذا ذكرنا الله وحّدْناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه .

---

(٨٠) سورة الكهف الآية : ٢٨ .

وفى مسندى الإمام أحمد والبزار من حديث أبى هريرة أن النبى - ﷺ - : « **قال جددوا إيمانكم** قالوا وكيف نجدد إيماننا يارسول الله قال : **قولوا لا إله إلا الله**[٨١] ولهذا كان الصحيح المشهور عن الإمام أحمد الذى عليه أكثر أصحابه وأكثر علماء السنة من جميع الطوائف أن ما فى القلب من التصديق والمعرفه يقبل الزيادة والنقصان فالمؤمن يحتاج دائماً كل وقت إلى تجديد إيمانه وتقوية يقينه ، وطلب الزيادة فى معارفه والحذر من أسباب الشك والريب والشبهة ومن هنا يعلم معنى قول النبى ﷺ : « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** »[٨٢] فإنه لو كان مستحضرا فى تلك الحال لاطلاع الله عليه ومقته له مع ما توعده الله به من العقاب المجمل والمفصل استحضارا تاماً لامتنع منه بعد ذلك وقوع هذا المحظور وإنما وقع فيما وقع فيه لضعف إيمانه ونقصه .

[الخوف والرجاء]

الوجه الثالث : أن تصور حقيقة المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور حقيقة المحبوب توجب طلبه فإذا لم يهرب من هذا ، ولم يطلب هذا دل على أن تصوره لذلك ليس تاما وإن كان قد يصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر به فإذا أخبر بما هو محبوب أو مكروه له ، ولم يكذب الخبر بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب فى الأثر المعروف عن الحسن وروى مرسلا عن النبى ﷺ :

(٨١) **حديث ضعيف** . أخرجه أحمد (٢/٣٥٩) ، وابن عدى (٤/١٣٩٤) فى الكامل ، والحاكم (٤/٢٥٦) ، وأبو نعيم (٢/٣٥٧) فى الحلية ، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١/٥٢) فيه صدقة الدقيقى من الضعفاء ، وشتير من المجهولين .

(٨٢) مر تخريجه .

« العلم علمان فعلم فى القلب فذاك العلم النافع وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم »[٨٣] .

[الجهل سبب الوقوع فى المعاصى]

الوجه الرابع : أن كثيراً من الذنوب قد يكون سبب وقوعه جهل فاعله بحقيقة قبحه وبغض الله له وتفاصيل الوعيد عليه وإن كان عالما بأصل تحريمه وقبحه لكنه يكون جاهلا بما ورد فيه من التغليظ والتشديد ونهاية القبح فجهله بذلك هو الذى جرأه عليه وأوقعه فيه ولو كان عالما بحقيقة قبحه لأوجب ذلك العلم تركه خشية من عقابه ، ولهذا كان القول الصحيح الذى عليه السلف وأئمة السنة أنه يصح التوبة من بعض الذنوب دون بعض خلافا لبعض المعتزلة[٨٤] فإن أحد الذنبين قد يعلم قبحه فيتوب منه ويستهين بالآخر لجهله بقبحه وحقيقة مرتبته فلا يقلع عنه ولذلك قد يقهره هواه ويغلبه فى أحدهما دون الآخر فيقلع عما لم يغلبه هواه دون ما غلبه فيه هواه ولا يقال لو كانت الخشية عنده موجودة لأقلع عن الجميع لأن أصل الخشية عنده موجودة ولكنها غير تامة وسبب نقصها إما نقص علمه وإما غلبة هواه فتبعض توبته نشأ من كون المقتضى للتوبة من أحد الذنبين أقوى من المقتضى للتوبة من الآخر أو كون المانع من التوبة من أحدهما أشد من المانع من الآخر .

---

(٨٣) **حديث ضعيف** . أخرجه الخطيب (٣٤٦/٤) فى تاريخه ، وفيه عنعنة الحسن، وهو مدلسٌ، وقال العراق : رواه الحكيم الترمذى فى النوادر ، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً كما فى المغنى (٥٨/١) .

(٨٤) **المعتزلة** : فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة فى بعض المعتقدات ، على رأسهم واصل بن عطاء الذى اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصرى ، وقيل إنهم زعموا اعتزالهم فئتى الضلالة – عندهم – يعنون أهل السنة والجماعة ، والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلا ، وكانوا يؤولون الآيات القرآنية بما يتفق مع مبادئهم ومذاهبهم .

[العاقل لا يقدم على إضرار نفسه]

الخامس : أن كل من علم عِلماً تاما جازما بأن فعل شيئاً يضره ضررا راجحا لم يفعله فإن هذا خاصةً العاقل فإن نفسه تنصرف عما يعلم رجحان ضرره بالطبع فإن الله جعل فى النفس حبا لما ينفعها وبغضا لما يضرها فلا يفعل ما يجزم بأنه يضرها ضرراً راجحا ولا نفع ذلك إلا مع ضعيف العقل فإن السقوط من موضع عالٍ أو فى نهر مغرق والمرور تحت حائط يخشى سقوطه ودخول نار متأججة ورمى المال فى البحر ونحو ذلك لا يفعله من هو تام العقل لعلمه بأن هذا ضرر ولا منفعة فيه ، وإنما يفعله من لم يعلم ضرره كالصبى ، والمجنون ، والساهى ، والغافل ، وأما العاقل فلا يقدم على ما يضره مع علمه بما فيه من الضرر إلَّا لظنه أن منفعته راجحه إما بأن يجزم بأن ضرره مرجوح أو يظن أن خيره راجح كالذى يركب البحر ويسافر الأسفار الخطرة للربح فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما فعل ذلك وإنما أقدم عليه لترجيح السلامة عنده والربح ، وإن كان قد يكون مخطئا فى هذا الظن ، وكذلك الزانى ، والسارق ونحوهما لو حصل لهم جزم بإقامة الحدود عليهم من الرجم والقطع ونحو ذلك لم يقدموا على ذلك فإذا علم هذا فأصل ما يوقع الناس فى السيئات الجهل ، وعدم العلم بأنها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعا راجِحاً وذلك كله جهل إما بسيط وإما مركب ، ولهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فإن صاحبها فى حالِ جاهية ولهذا كان الشيطان يزيِّن السيئات ويأمر بها ويذكر ما فيها من المحاسن التى يظن أنها منافع لا مضار كما أخبر الله عنه فى قصة آدم أنه قال : ﴿ **يا آدم هل أدلك على شجرة**

الخلد ومُلْك لا يبلى فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما ﴾[٨٥] وقال : ﴿ ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحْمَنِ نُقَيِّض له شيطاناً فهو لَهُ قَرِينٌ وإنهم ليصدُّونَهم عن السبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون ﴾[٨٧] وقال تعالى : ﴿ « أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[٨٨] وقال كذلك : ﴿ زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾[٨٩] وتزيين أعمالهم يكون بواسطة الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير وتزيين شياطين الإنس والجن للشر ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّن لكثيرٍ من المُشْرِكين قَتْلَ أولادِهم شركاؤُهم لِيُرْدُوهُم وليَلْبِسُوا عليهم دينَهم ﴾[٩٠] ومثل هذا كثير . فالفاعل للذنب لو جزم بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله لكنه يزين له ما فيه من اللذة التى يظن أنها مصلحة ولا يجزم بوقوع عقوبته بل يرجو العفو بحسنات أو توبة أو بعفو الله ونحو ذلك وهذا كله من اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولو كان له علم كامل لعرف به رجحان ضرر السيئة فأوجب له ذلك الخشية المانعة له من مواقعتها ونبين هذا .

---

(٨٥) سورة طه الآية : ١٢٠ .
(٨٦) سورة الأعراف الآية : ٢٠ .
(٨٧) سورة الزخرف الآية : ٣٦ .
(٨٨) سورة فاطر الآية : ٨ .
(٨٩) سورة الأنعام الآية : ١٠٨ .
(٩٠) سورة الأنعام الآية : ١٣٧ .

[لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام]

بالوجه السادس : وهو أن لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام والمفاسد البته فإن لذاتها سريعة الانقضاء وعقوباتها وآلامها أضعاف ذلك ولهذا « قيل إن الصبر على المعاصى أهون من الصبر على عذاب الله » وقيل : « **رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا** » وما فى الذنوب من اللذات كما فى الطعام الطيب المسموم من اللذة فهى مغمورة بما فيه من المفسدة ومؤثر لذة الذنب كمؤثر لذة الطعام المسموم الذى فيه من السموم ما يمرض أو يقتل ومن هاهنا يعلم أنه لا يؤثر لذات الذنوب إلا من هو جاهل بحقيقة عواقبها كما لا يؤثر أكل الطعام المسموم للذته إلا من هو جاهل بحاله أو غير عاقل ورجاؤه التخلص من شرها بتوبة أو عفو أو غير ذلك كرجاء آكل الطعام المسموم الطيب للخلاص من شر سُمّه بعلاج أو غيره ، وهو فى غاية الحمق والجهل ، فقد لا يتمكن من التخلص منه بالكلية ، فيقتله سمه ، وقد لا يتخلص منه تخلصا تاماً فيطول مرضه ، وكذلك المذنب قد لا يتمكن من التوبة ، فإن من وقع فى ذنب تجرَّأ على عمره وهان عليه خوض الذنوب وعَسُر عليه الخلاص منها ولهذا قيل : « **من عقوبة الذنب . الذنب بعده** » .

وقد دل على ذلك القرآن فى غير موضع ، وإذا قُدّر أنه تاب منه فقد لا يتمكن من التوبة النصوح الحاصلة التى تمحو أثره بالكلية ، وإن قدر أنه تمكن من ذلك فلا يقاوم اللذة الحاصلة بالمعصية ما فى التوبة النصوح المشتملة على الندم والحزن والخوف والبكاء وتجشم الأعمال الصالحة المشقة من الألم والمشقة ولهذا قال الحسن : « ترك الذنب أيسر من طلب التوبة » ويكفى المذنب ما فاته فى حال اشتغاله بالذنوب

من الأعمال الصالحة التى كان يمكنه تحصيل الدرجات بها وقد اختلف الناس فى التائب هل يمكن عوده إلى ما كان عليه قبل المعصية ؟ على قولين معروفين . والقول بأنه لا يمكن عوده إلى ما كان عليه قول أبى سليمان الدارانى وغيره وكذلك اختلفوا فى التوبة إذا استكملت شروطها هل يجزم بقبولها على قولين : فالقاضى أبو بكر وغيره من المتكلمين على أنه لا يجزم بذلك ولكن أكثر أهل السنة والمعتزلة وغيرهم على أنه يقطع بقبولها وإن قُدِّر أنه عفى عنه من غير توبة فإن كان ذلك بسبب أمر مكفر عنه كالمصايب الدنيوية وفتنة القبر وأهوال البرزخ وأهوال الموقف ونحو ذلك فلا يستريب عاقل أن ما فى هذه الأمور من الآلام والشدائد أضعاف أضعاف ما حصل فى المعصية من اللذة وإن عفى عنه بغير سبب من هذه الأسباب المكفرة ونحوها فإنه لابد أن يلحقه عقوبات كثيرة منها ما فاته من ثواب المحسنين فإن الله تعالى وإن عفا عن المذنب فلا يجعله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السيِّئَاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[٩١] وقال : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾[٩٢] .

ولهذا قال بعض السلف عُدّ أن المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ولولا أن الله تعالى رضّى أهل الجنة كلهم بما حصل لهم من المنازل لتقطعت أصحاب اليمين حسرات مما فاتهم من منازل المقربين مع إمكان مشاركتهم لهم فى أعمالهم التى نالوا بها منازلهم العالية ، وقد جاء فى الأحاديث والآثار أنهم يقولون ألم نكن مع هؤلاء فى الدنيا ؟ فيقال :

---

(٩١) سورة الجاثية الآية : ٢١ .

(٩٢) سورة صٓ الآية : ٢٨ .

كنتم تفطِرون ، وكانوا يصومون ، وكنتم تنامون ، وكانوا يقومون ، وكنتم تبخلون ، وكانوا ينفقون ، ونحو ذلك .

وكذلك جاء أن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير فى ملكه فما تبقى خيمة من خيم الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه فيستبشرون بريحه فيقولون واهاً لهذه الريح هذا رجل من أهل عليين قد خرج يسير فى ملكه هذا قد روى من حديث ابن مسعود مرفوعا ، وروى من كلام كعب ومنها ما يلحقه من الخجل والحياء من الله عز وجل عند عرضه عليه وتقديره بأعماله ، وربما كان ذلك أصعب عليه من دخول النار ابتداءً وقد أخبر بذلك بعض المحتضرين فى زمان السلف عند احتضاره وكان أغمى عليه حتى ظُنَّ أنه مات ثم أفاق فأخبر بذلك وجاء تصديق ذلك فى الأحاديث والآثار كما روى عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب الزهد بإسناده عن أبى هريرة – رضى الله عنه قال : **يُدْنى الله – عز وجل – العبدَ يوم القيامة ، فيضع عليه كفنه ، فيستره من الخلائق كلها ، ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر ، فيقول اقرأ ياابن آدم كتابك ، قال فيمر بالحسنة ، فيبيض لها وجْهُه ، ويُسَرُّ بها قلبه قال : فيقول الله – عز وجل – أتعرف يا عبدى ، فيقول نعم يارب أعرف ، فيقول إنى قد قبلتها منك ، قال : فيخر لله ساجدا ، قال فيقول الله – عز وجل – ارفع رأسك ياابن آدم وعُد فى كتابك قال فيمر بالسيئة فيسود لها وجْهُه ، ويوجل منها قلبه وترتعد منها فرائصه ، ويأخذه من الحياء من ربه ما لا يعلمه غيره ، قال : فيقول الله – عز وجل – أتعرف يا عبدى ، قال فيقول : نعم يارب أعرف ، قال فيقول : إنى قد غفرتها لك قال فلا يزال حسنة تُقبل فيسجد ، وسيئة تُغفر فيسجد ، فلا ترى الخلائق منه إلا السجود . قال حتى تنادى**

الخلائق بعضها بعضا . طوبى لهذا العبد الذى لم يعص الله قط ، ولا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله - عز وجل -[٩٣] .

ومما قد وقفه عليه وروى معنى ذلك عن أبى موسى ، وعبد الله بن سلام ، وغيرهما ، ويشهد لهذا حديث عبد الله بن عمر الثابت فى الصحيح حديث النجوى أن النبى ﷺ قال : « **إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبده فيضع عليه كفنه فيقول : ألم تعمل يوم كذا وكذا ذنب كذا وكذا فيقول بلى يارب فيقول فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وغفرت ذلك لك اليوم** »[٩٤] وهذا كله فى حق من يريد الله أن يعفو عنه ويغفر له فما الظن بغيره ولهذا فى مراسيل الحسن عن النبى ﷺ وسلم : « **إذا أراد الله أن يستر على عبده يوم القيامة أراه ذنوبه فيما بينه وبينه ثم غفرها له** »[٩٥] ولهذا كان أشهر القولين أن هذا الحكم عام فى حق التائب وغيره وقد ذكره أبو سليمان الدمشقى عن أكثر العلماء واحتجوا بعموم هذه الأحاديث مع قوله تعالى : ﴿ **ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا** ﴾[٩٦] وقد نقل ذلك صريحا عن غير واحد من السلف كالحسن البصرى وبلال ابن سعد حكيم أهل الشام كما روى ابن أبى الدنيا وابن المنادى وغيرهما عن

---

(٩٣) **حديث حسن** . أخرجه عبد الله بن أحمد (ص /٢١٥) فى زوائده على الزهد ، وفى سنده سيار العنزى ، وهو صدوقٌ ، وجعفر بن سليمان وهو صدوقٌ أيضا .

(٩٤) **حديث صحيح** . أخرجه البخارى (٩٣/٦) ، ومسلم (٢٧٦٨) ، وأحمد (١٠٥/٢) ، وابن المبارك (٥٤) فى الزهد ، وابن ماجه (١٨٣) .

(٩٥) **حديث مرسلٌ** . وهو من أقسام الضعيف .

(٩٦) سورة الكهف الآية : ٤٩ .

الحسن أنه سئل عن الرجل يذنب ثم يتوب هل يمحى من صحيفته ؟ قال لا دون أن يوقفه عليه ثم يسأله عنه ثم فى رواية ابن المنادى وغيره ثم بكى الحسن وقال لو لم تبك الأحياء من ذلك المقام لكان يحق لنا أن نبكى فنطيل البكاء .

وذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف أنه قال : « ما يمر علىَّ أشد من الحياء من الله عزَّ وجل » .

وفى الأثر المعروف الذى رواه أبو نعيم وغيره عن علقمة بن مرثد أن الأسود بن يزيد لما احتضر بكى فقيل له ما هذا الجزع قال مالى لا أجزع ومن أحق بذلك منى والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لهمنى الحياء منه مما قد صنعته إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيا منه .

ومن هذا قول الفضيل بن عياض : بالموقف واسوءتاه منك وإن عفوت المقصود هنا أن آلام الذنوب ومشاقها وشداتها التى تزيد على لذاتها أضعافا مضاعفة لا يتخلف عن صاحبها لا مع توبة ولا عفو فكيف إذا لم يوجد واحد منهما ويتضح هذا بما نذكره فى الوجه السابع .

[هموم الذنوب وكروبها]

الوجه السابع : وهو أن المقدم على مواقعة المحظور إنما أوجب إقدامه عليه ما فيه من اللذة الحاصلة له به فظن أنه يحصل له لذته العاجلة ورجى أن يتخلص من تبعته بسبب من الأسباب ولو بالعفو المجرد فينال به لذة ولا يلحقه به مضرة وهذا من أعظم الجهل والأمر تجلس باطنه فإن الذنوب تتبعها ولابد من الهموم والآلام وضيق الصدر والنكد، وظلمة القلب، وقسوته

أضعاف أضعاف ما فيها من اللذة ، ويفوت بها من حلاوة الطاعات ، وأنوار الإيمان ، وسرور القلب ببهجة الحقائق والمعارف ، ما لايوازى الدرة منه جميع لذات الدنيا فيحصل لصاحب المعصية العيشة الضنك ، وتفوته الحياة الطيبة ، فينعكس قصده بارتكاب المعصية ، فإن الله ضمن لأهل الطاعة الحياة الطيبة ، ولأهل المعصية العيشة الضنك . قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضَنْكا ونَحْشُرُه يوم القيامة أعمى** ﴾[٩٧] وقال : ﴿ **وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[٩٨] وقال : ﴿ **وَلَنُذِيقنَّهم من العذاب الأَدْنَى دُونَ العَذابِ الأَكْبَر لعلهم يرجعون** ﴾[٩٩] وقال فى أهل الطاعة ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيِّبةً** ﴾[١٠٠] .

قال الحسن وغيره من السلف لنرزقنه عبادة يجد حلاوتها فى قلبه ، ومن فسرها بالقناعة فهو صحيح أيضا من أنواع الحياة الطيبة الرضى بالمعيشة فإن الرضى كما قال عبد الواحد بن زيد جنة الدنيا ومستراح العابدين وقال تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾[١٠١] .

وقال : ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين** ﴾[١٠٢] .

---

(٩٧) سورة طه الآية : ١٢٤ .
(٩٨) سورة الطور الآية : ٤٧ .
(٩٩) سورة السجدة الآية : ٢١ .
(١٠٠) سورة النحل الآية : ٩٧ .
(١٠١) سورة هود الآية : ٣ .
(١٠٢) سورة آل عمران الآية : ١٤٨

كما قال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾[١٠٣] ومثل هذا كثير فى القرآن فما فى الطاعة من اللذة والسرورة والابتهاج والطمأنينة وقرة العين أمر ثابت بالنصوص المستفيضة وهو مشهود محسوس يدركه بالذوق والوجد من حصل له ولا يمكن التعبير بالكلام عن حقيقته ، والآثار عن السلف والمشايخ العارفين فى هذا الباب كثيرة موجودة حتى كان بعض السلف يقول : « لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف » .

وقال آخر : « لو علموا ما نحن فيه لقتلونا ودخلوا فيه » .

وقال أبو سليمان : « أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا » .

وقال : « إنه ليمر على القلب أوقات يضحك فيها ضحكاً » .

وقال ابن المبارك وغيره : « مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها قيل ما أطيب ما فيها قال معرفة الله »[١٠٤] .

وقال آخر أوجدنى الله قلبا طيبا حتى قلت إن كان أهل الجنة فى مثل هذا فإنهم فى عيش طيب .

وقال مالك بن دينار : « ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله »[*] .

وهذا باب واسع جدا ، والمعاصى تقطع هذه المواد ، وتغلق أبواب هذه الجنة المعجلة ، وتفتح أبواب الجحيم العاجلة من الهم والغم والضيق

---

(١٠٣) سورة النحل الآية : ١٠٣ .

(١٠٤) روى أبو نعيم هذا الأثر فى الحلية (٣٥٨/٢) عن مالك بن دينار قال : « خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها ، قالوا وما هو يا أبا يحيى ؟ قال معرفة الله تعالى » .

(*) الأثر رواه أبو نعيم فى الحلية (٣٥٨/٢) .

والحزن والتكدر وقسوة القلب وظلمته وبُعده عن الرب – عز وجل – وعن مواهبه السَّنيَّة الخاصة بأهل التقوى .

كما ذكر ابن أبى الدنيا بإسناده عن على رضى الله عنه قال : « جزاء **المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعس فى اللذة . قيل** وما التعس فى اللذة ؟ قال لا ينال شهوة حلالا إلا جاءه ما يبغضه إياها » .

وعن الحسن قال : « العمل بالحسنة نور فى القلب وقوة فى البدن ، والعمل بالسيئة ظلمة فى القلب ووهن فى البدن » .

وروى ابن المنادى وغيره عن الحسن قال : « إن للحسنة ثوابا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة وإن للسيئة ثوابا فى الدنيا ، وثوابا فى الآخرة ؛ فثواب الحسنة فى الدنيا البصر فى الدين ، والنور فى القلب ، والقوة فى البدن مع صحبة حسنة جميلة ، وثوابها فى الآخرة رضوان الله عز وجل ، وثواب السيئة فى الدنيا العمى فى الدنيا والظلمة فى القلب والوهن فى البدن مع عقوبات ونقمات وثوابها فى الآخرة سخط الله عز وجل والنار » .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن مالك بن دينار قال : إن لله عقوبات فتعاهدوهن من أنفسكم فى القلوب والأبدان : ضنك فى المعيشة ووهن فى العبادة وسخط فى الرزق[١٠٥] .

وعنه أنه قال ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

---

(١٠٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/٢٨٧) ولفظه « إن لله عقوبات فى القلوب والأبدان ؛ ضنك فى المعيشة ، ووهن فى العبادة ، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب » .

ومثل هذا كثير جدا وحاصل الأمر ما قاله قتادة وغيره من السلف أن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا به بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وهذا هو الذى عليه المحققون من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم كالقاضى أبى يعلى وغيره وإن كان بينهم فى جواز وقوع خلاف ذلك عقلا نزاع مبنى على أن العقل هل له مدخل فى التحسين والتقبيح أم لا ؟

وكثير منهم كأبى الحسن التميمى وأبى الخطاب على أن ذلك لا يجوز عقلا أيضا وأما من قال بوقوع مثل ذلك شرعا فقوله شاذ مردود .

والصواب أن ما أمر الله به عباده فهو عين صلاحهم وفلاحهم فى دنياهم وآخرتهم فإن نفس الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده وعبادته ومحبته وإجلاله وخشيته وذكره وشكره هو غذاء القلوب وقوتها وصلاحها وقوامها ، فلا صلاح للنفوس ، ولا قرة للعيون ولا طمأنينة ، ولا نعيم للأرواح ، ولا لذة لها فى الدنيا على الحقيقة إلا بذلك ، فحاجتها إلى ذلك أعظم من حاجة الأبدان إلى الطعام والشراب والنَّفَس بكثير ، فإن حقيقة العبد وخاصيته هى قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بتألهه لإلهه الحق الذى لا إله إلا هو ، ومتى فقد ذلك هلك وفسد ، ولم يصلحه بعد ذلك شىء ألبته ، وكذلك ما حرمه الله على عباده هو عين فسادهم وضررهم فى دينهم ودنياهم ، ولهذا حرَّم عليهم ما يصدهم عن ذكره وعبادته كما حرَّم الخمر والميسر ، وبيَّن أنه يصد عن ذكره وعن الصلاة مع مفاسد أُخر ذكرها فيهما وكذلك سائر ما حرَّمه الله فإن فيه مضرة لعباده فى دينهم ودنياهم وآخرتهم كما ذكر ذلك السلف وإذا تبيَّن هذا وعُلم أن صلاح العباد ومنافعهم ولذاتهم فى امتثال ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم الله عنه تبيَّن أن من طلب حصول اللذة والراحة من فعل المحظور أو ترك المأمور فهو فى غاية الجهل والحمق تبيّن أن كل من عصى الله فهو

جاهل كما قاله السلف ودل عليه القرآن كما تقدم ولهذا قال : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وهُو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾(١٠٦) وقال : ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثْبِيتَا وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديْنَاهم صراطاً مستقيمًا** ﴾(١٠٧) .

وقال تعالى : ﴿ **واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفرُوا يعلمون الناس السحرَ وما أُنزل على الملكينِ ببابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ وما يعلِّمان من أحَدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارِّين به من أحَدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضُرُّهُم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كان يعلمون** ﴾(١٠٨) فأخبر أنهم علموا أن من اشتراه أى تعوض به فى الدنيا فلا خلاق له فى الآخرة ثم قال : ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾(١٠٩) فيدل هذا على أنهم لم يعلموا سوء ما شروا به أنفسهم وقد اختلف المفسرون فى الجمع بين إثبات العلم ونفيه هاهنا فقالت طائفة منهم : الذين علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق هم الشياطين الذين يُعلمون الناس السحر والذين قيل فيهم ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ .

---

(١٠٦) سورة البقرة الآية ٢١٦ .
(١٠٧) سورة النساء الآية : ٦٦ .
(١٠٨) سورة البقرة الآية : ١٠٢ ، ١٠٣ .
(١٠٩) سورة البقرة الآية : ١٠٢ .

هم الناس الذين يتعلمون . قال ابن جرير[١١٠] وهذا القول خطأ مخالف لإجماع أهل التأويل على أن قوله : (ولقد علموا أنه) عائد على اليهود الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان – ثم أخبر ابن جرير أن الذين علموا أنه لا خلاق لمن اشتراه هم اليهود والذين قيل فيهم لو كانوا يعلمون هم الذين يتعلمون من الملكين وكثيرا ما يكون فيهم الجهال بأمر الله ووعده ووعيده وهذا أيضا ضعيف فإن الضمير فيهما عائد إلى واحد وأيضا فإن الملكين يقولان لمن يعلمانه إنما نحن فتنة فلا تكفر فقد أعلماه تحريمه وسوء عاقبته وقالت طائفة إنما نُفِي عنهم العلم بعد ما أثبته لانتفاء ثمرته وفائدته وهو العمل بموجبه ومقتضاه فلما انتفى عنهم العمل بعلمهم جعلهم جُهَّالا لا يعلمون كما يقال لا علم إلا ما نفع وهذا حكاه ابن جرير وغيره وحكى الماوردى قولا بمعناه لكنه جعل العمل مضمراً وتقديره لو كانوا يعملون بما يعلمون .

وقيل إنهم علموا أن من اشتراه فلا خلاق له أى لا نصيب له فى الآخرة من الثواب لكنهم لم يعلموا أنه يستحق عليه العقاب مع حرمانه الثواب وهذا حكاه الماوردى وغيره وهو ضعيف أيضا فإن الضمير

---

(١١٠) **ابن جرير** : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى أبو جعفر : المؤرخ ، المفسر الإمام ولد فى آمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفى بها (٢٢٤ – ٣١٠ هـ) وعرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى . له « أخبار الرسل والملوك » يعرف بتاريخ الطبرى فى ١١ جزءاً ، و « جامع البيان فى تفسير القرآن » يعرف بتفسير الطبرى فى ٣٠ جزءاً ، و « اختلاف الفقهاء » و « المسترشد » فى علوم الدين . وغير ذلك . وهو من ثقات المؤرخين . قال ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ ، وفى تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق ، وكان مجتهداً فى أحكام الدين لا يقلد أحدًا بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه ، وكان أسمر ، أعين ، نحيف الجسم ، فصيحا .

انظر : كشف الظنون (٤٣٧) وميزان الاعتدال (٣٥/٣) البداية والنهاية (١٤٥/١١) ، الأعلام (٦٩/٦) .

إن عاد إلى اليهود ، فاليهود لا يخفى عليهم تحريم السحر واستحقاق صاحبه العقوبة وإن عاد إلى الذين يتعلمون من الملكين فالملكان يقولان لهم : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) والكفر لا يخفى على أحد أن صاحبه يستحق العقوبة وإن عاد إليهما وهو الظاهر فواضح وأيضا فإذا علموا أن من اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق فقد علموا أنه يستحق العقوبة لأن الخلاق النصيب من الخير فإذا عَلِمَ أنه ليس له نصيب فى الخير بالكلية فقد علم أن له نصيبا من الشر لأن أهل التكليف فى الآخرة لا يخلو واحد منهم عن أن يحصل له خير أو شر لا يمكن انتكاله(١١١) عنهما جميعاً ألبته .

وقالت طائفة : علموا أن من اشتراه فلا خلاق له فى الآخرة لكنهم ظنوا أنهم ينتفعون به فى الدنيا ولهذا اختاروه وتعوضوا به عن بوار الآخرة وشروا به أنفسهم وجهلوا أنه فى الدنيا يضرهم أيضا ولا ينفعهم فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ذلك وأنهم إنما باعوا أنفسهم وحظهم من الآخرة بما يضرهم فى الدنيا أيضا ولا ينفعهم وهذا القول حكاه الماوردى وغيره وهو الصحيح فإن الله تعالى قال : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ أى هو فى نفس الأمر يضرهم ولا ينفعهم بحال فى الدنيا وفى الآخرة ولكنهم لم يعلموا ذلك لأنهم يُقْدِمُوا عليه إلا لظنهم أنه ينفعهم فى الدنيا ثم قال : ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق** ﴾ أى قد تيقنوا أن صاحب السحر لاحظ له فى الآخرة وإنما يختاره لما يرجو من نفعه فى الدنيا وقد يسمون ذلك العقل المعيشى أى العقل الذى يعيش به الإنسان فى الدنيا عيشة طيبة قال الله تعالى : ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾(١١٢) أى إن هذا الذى يعوضوا به عن ثواب الآخرة فى الدنيا أمر مذموم مضر لا ينفع

---

(١١١) هكذا بالأصل ولعلها [انتفائه] .

(١١٢) سورة البقرة الآية : ١٠٢ .

لو كانوا يعلمون ذلك ثم قال : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كان يعلمون** ﴾[١١٣] يعنى أنهم لو اختاروا الإيمان والتقوى بدل السحر لكان الله يثيبهم على ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه فى الدنيا لو كانوا يعلمون فيحصل لهم فى الدنيا من ثواب الإيمان والتقوى من الخير الذى هو جلب المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلونه بالسحر من خير الدنيا مع ما يُدخر لهم من الثواب فى الآخرة .

[حكم من آثر المعصية على الطاعة]

والمقصود هنا أن كل من آثر معصية الله على طاعته ظانا أنه ينتفع بإيثار المعصية فى الدنيا فهو من جنس من آثر السحر الذى ظن أنه ينفعه فى الدنيا على التقوى والإيمان ولو اتقى وآمن لكان خيرا له وأرجى لحصول مقاصده ومطالبه ودفع مضاره ومكروهاته ويشهد كذلك أيضا ما فى مسند البزار عن حذيفة قال : **قام النبى ﷺ فدعا الناس فقال : هلموا إلىّ** فأقبلوا إليه فجلسوا فقال : **هذا رسول رب العالمين جبريل عليه السلام نفث فى رُوعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله فإن الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته** »[١١٤] .

---

(١١٣) سورة البقرة الآية : ١٠٣ .

(١١٤) مجمع الزوائد (١٧١/٤) وقال الهيثمى : رواه البزار ، وفيه قدامة بن زائدة ابن قدامة ، ولم أجد من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات .

فصل [خلاصة ما تقدم]

إذا تبيّن هذا فقد علم أن العلم مستلزم للخشية من هذه الوجوه كلها لكن على الوجه الأول يستلزم الخشية العلم بالله وجلاله وعظمته وهو الذى فسر الآية به جماعة من السلف كما تقدم وعلى الوجوه الأخر تكون الخشية ملازمة للعلم بأوامر الله ونواهيه وأحكامه وشرائعه وأسرار دينه وشرعه وخلقه وقدره ولا تنافى بين هذا العلم والعلم بالله فإنهما قد يجتمعان وقد ينفرد أحدهما عن الآخر وأكمل الأحوال اجتماعهما جميعاً وهى حالة الأنبياء عليهم السلام وخواص الصديقين ومتى اجتمعا كانت الخشية حاصلة من تلك الوجوه كلها وإن انفرد أحدهما حصل من الخشية بحسب ما حصّل من ذلك العلم والعلماء الكُمَّل أولوا العلم فى الحقيقة الذين جمعوا الأمرين .

وقد ذكر الحافظ أبو أحمد بن عدى ثنا أحمد بن عبد الله بن صالح ابن شيخ بن عَميره ثنا إسحاق بن بهلول قال : قال لى إسحاق بن الطباع قال لى سفيان بن عيينة : « عالم بالله عالم بالعلم ، عالم بالله ليس بعالم بالعلم ، عالم بالعلم ليس بعالم بالله » قال : قلت لإسحاق فهمنيه واشرحه لى قال : عالم بالله عالم بالعلم حماد بن سلمة ، عالم بالله ليس بعالم بالعلم مثل أبى الحجاج العابد ، عالم بالعلم ليس بعالم بالله فلان ، وفلان وذكر بعض الفقهاء .

وروى الثورى عن أبى حيان التيمى سعيد بن حيان عن رجل قال كان يقال العلماء ثلاثة : « فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله » .

فالعالم بالله وبأوامر الله: الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض .

والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض .

والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذى يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عز وجل[١١٥] .

وأما بيان أن انتفاء الخشية ينتفى مع العلم،فإن العلم له موجب ومقتضى،وهو اتباعه والاهتداء به وصده الجهل، فإذا انتفت فائدته ومقتضاه، صار حاله كحاله عند عدمه وهو الجهل، وقد تقدم أن الذنوب إنما تقع عن جهالة وبيَّنا دلالة القرآن على ذلك وتفسير السلف له بذلك فيلزم وحينئذ إنْ ينتفى العلم ويثبت الجهل عند انتفاء فائدة العلم ومقتضاه وهو اتباعه، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾[١١٦] وقول النبى ﷺ : « إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل **فإنْ** امرؤٌ شاتمه أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم »[١١٧] وهذا كما يوصف من لا ينتفع بسمعه وبصره وعقله فى معرفة الحق والانقياد له بأنه أصم أبكم أعمى قال تعالى : ﴿ **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾[١١٨] ويقال أيضا : إنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل كما قال

---

(١١٥) الأثر فى « تفسير القرآن العظيم » للحافظ ابن كثير . (٥٣١/٦) ط . دار الشعب .

(١١٦) سورة الفرقان الآية : ٦٣ .

(١١٧) **حديث صحيح** . أخرجه البخارى (٣٤/٣) ، ومسلم (١١٥١) ، وأحمد (٣٥٦/٢) .

(١١٨) سورة البقرة الآية : ١٧١ .

الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١١٩] فسَلْبُ العلم والعقل والسمع والبصر وإثبات الجهل والبكم والصم والعمى فى حق من فَقَدَ حقائق هذه الصفات وفوائدها من الكفار أو المنافقين أو من يشركهم فى بعض ذلك كله من باب واحد وهو سلب اسم الشيء أو مسماه لانتفاء مقصوده وفائدته وإن كان موجود أو هو باب واسع وأمثلته كثيرة فى الكتاب والسنة .

انتهى ما ذكره الشيخ نفع الله به ونسخ فى مدته ، ونقل من نسخة مكتوب عليها ما صورته .

بلغ مقابلة(*) على أصلى وهو كاتبه وصاحبه الفقيه الفاضل الأوحد المستعل المحصل فى الدين أبو الحسن محمد بن الشيخ القدوة العارف أبى محمد عبد القادر بن محمد بن على بن الحجار المدنى الحنبلى نفعه الله ونفع به ....

---

(١١٩) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .

(*) كذا بالمنسوخة .

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
مقدمة المحقق	٤
منهج المؤلف فى الرسالة	١٤
ترجمة المصنف	١٧
عملى فى الكتاب	٢٤
وصف المخطوطة	٢٥
صورة المخطوطة	٢٦
فصل دلالة كلمة (إنما) عند النحاة	٢٨
فصل كيف تكون الخشية	٤٨
بيان أن العلم يوجب الخشية	٥٢
الخوف والرجاء	٥٦
الجهل سبب الوقوع فى المعاصى	٥٧
العاقل لا يقدم على إضرار نفسه	٥٨
لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام	٦٠
هموم الذنوب وكروبها	٦٤
حكم من آثر المعصية على الطاعة	٧٢
فصل خلاصة ما تقدم	٧٣
فهرس الكتاب	٧٦